محاضرات

مقرر العقيدة الإسلامية (1)

د. أحمد عبدالله الطيار

المستوى الرابع – دراسات إسلامية

2015 - 2014

المحاضرة الأولى
تعريف علم العقيدة

إن علم العقيدة هو أشرف العلوم الشرعية بعد كتاب الله تبارك وتعالى وذلك لأن كل علم ينال شرفه من شرف المعلوم عنه فما بالنا لو كان الحديث هنا عن رب البرية - تبارك وتعالى - وعن معرفته جل وعلا بأسمائه وصفاته ومعرفة حقه الذي يتوجب على العباد القيام به ، فمن هنا جاء شرف علم العقيدة وهو العلم الذي يجمع في ثناياه معرفة الخالق تبارك وتعالى لذلك ينبغي لطالب علم العقيدة أن يقف على عدة مقدمات مهمة قبل دراسة علم العقيدة حتى يمُن الله عز وجل عليه بفهم صحيح لعقيدة التوحيد كما كان فهمها أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم وكذلك السلف الصالح عليه رضوان الله . ما أهمية تعلُّم العقيدة؟ ولِمَ الحديث عن العقيدة؟ أو بمعنى آخر: لماذا نَدرُس العقيدة؟ وما الأسباب الداعية إلى دراسة العقيدة؟ وما فوائد دراسة العقيدة؟

وعند الإجابة عن هذا السؤال نُدرك الإجابة عن السؤال التالي:

هل الحاجة إلى العقيدة الصحيحة حاجةٌ مُلِحة؟ وهل تعلُّم العقيدة ضروري؟

ثم نختم هذه الكلمة بالكلام عن حُكم تعلُّم العقيدة.

والهدف من الإجابة عن هذه الأسئلة أن نَعلم أهميَّة العقيدة عن طريق السؤال والجواب، فتَثبُت في الذهن.

وبمعرفة أهمية العقيدة يَزداد طالب العلم حرصًا على تعلُّم العقيدة، ويَنشَط لدراستها؛ لأن معرفة الهدف والغاية وأهمية الشيء، يعطي الشيء أهميَّة كبيرة لدى الإنسان، ويَجعله يحرِص عليه، وإذا أردتَ العلم، فاعرِف الأهم؛ إذ البَدء بمعرفته يَختصر لك الطريق. العقيدة هي أهم علوم الدين:

نحن نَدرس العقيدة؛ لأن العقيدة هي أهم علوم الدين على الإطلاق، فالعقيدة أهمُّ من الأخلاق، والعقيدة أهم من الآداب، والعقيدة أهم من العبادات، والعقيدة أهم من المعاملات؛ إذ هي أوَّل واجبٍ على المكلف، فعند دخول الشخص الإسلامَ يجب عليه معرفة التوحيد قبل تعلُّم العبادات.

وعندما بعَث النبي - صلى الله عليه وسلم - معاذًا إلى نحو أهل اليمن، قال له: ((فليَكن أوَّل ما تدعوهم إليه أن يُوحدوا الله تعالى، فإذا عرَفوا ذلك، فأخْبِرهم أن الله فرَض عليهم خمس صلوات)).

وقد دلَّ الحديث على أهمية التوحيد، الذي هو أهم مبحث في العقيدة، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - أمَر بالدعوة إلى تصحيح العقيدة قبل الدعوة إلى الأعمال، فقد قدَّم التوحيد على الأمر بالصلاة.

وقد مكَث النبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة بعد بَعثته ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس إلى تصحيح العقيدة، وإلى التوحيد، ولم تَنزِل عليه الفرائض إلا في المدينة؛ مما يدل على أن أوَّل أوَّليَّات الدَّعوة تعليم العقيدة، وأوَّل ما تقوم الدعوة على تصحيح العقيدة، ولا يطالَبُ الإنسان بالأعمال إلا بعد تصحيح العقيدة؛ لأجل أن تَنبني على العقيدة الصحيحة سائر الأعمال من العبادات والسلوك.

دراسة العقيدة لتصحيح المعتقد الفاسد:

نحن نَدرس العقيدة؛ لنُصحِّح عقيدتنا، وتصحيح المعتقد أمرٌ هام للغاية؛ لأن العقيدة هي الأساس الذي تُبنى عليه أعمال الإنسان، ويتوقَّف قَبول الأعمال الصالحة على سلامة أصول العقيدة من الشِّرك والكفر، فمن يَشوب عقيدتَه كفرٌ أكبر أو شِرك، يكون كافرًا.

والكافر لا تَنفعه أعماله الصالحة يوم القيامة، وإن فعَل الكثير من أعمال البر، فإذا كانت العقيدة غير صحيحة، بطَل ما يتفرَّع عنها من أعمالٍ وأقوال؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:65].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]؛ أي: لبطَلت أعمالُهم، فدون تصحيح العقيدة لا فائدة من الأعمال. تعلُّم العقيدة الصحيحة يَعصِم الإنسان من الشِّرك:

نحن نَدرُس العقيدة؛ لأن تعلُّم العقيدة الصحيحة يَعصِم الإنسان من الشرك، ونسيان العقيدة الصحيحة سببٌ للوقوع في الشرك.

وخُلو العقيدة من الشِّرك أو من اعتقادٍ مُكفِّر - فيصَلٌ حاسم بين خلود الإنسان في نار جهنَّمَ والنجاة منها؛ فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 48]. العقيدة أشرف العلوم وأعظمها:

نحن ندرس العقيدة؛ لأن العقيدة أشرفُ العلوم وأعظمها وأعلاها؛ لأن شرَفَ العلم وعظَمته بحسب المعلوم، ولا معلوم أكبر من ذات الله تعالى وصفاته، وهو ما يَبحث فيه هذا العلم.

العقيدة الصحيحة تزيد الإنسانَ خشية وبُعدًا عن المعاصي:

نحن ندرُس العقيدة؛ لكي نَزداد خشية من الله، فالعقيدة تحوي التوحيد الذي هو معرفة ما ينبغي لله وما لا ينبغي لله، ومعرفة الله أصلٌ من أصول الخشية، فكلما ازدادَت معرفة العبد بالله، ازداد خشيةً.

نحن ندرُس العقيدة؛ لكي ننجوَ من فِتن الشهوات، ولنَزداد بُعدًا عن ارتكاب المعاصي، فكيف يعصي المسلم الله وهو يَعلم أن الله بصيرٌ به، سميعٌ له، رقيبٌ عليه؟! العقيدة الصحيحة حماية من الشُّبهات:

نحن ندرُس العقيدة؛ لكي ننجوَ من فِتن الشُّبهات التي تَموج كموج البحر، فالعالم مليء بالمذاهب الباطلة الهدَّامة، والأفكار المنحلة، والمناهج الفاسدة، فلا بدَّ للمسلم أمام هذه المذاهب والأفكار والمناهج، أن يكون لديه علمٌ صحيح بالعقيدة، وأن يكون لديه فَهمٌ صحيح بها؛ حتى يَميز الخبيث من الطيِّب، والضعيف من الصحيح، والباطل من الحق. لماذا ندرس العقيدة؟

ولتَكُن نيَّتنا عند تعلُّم العقيدة، وأهدافنا عند تعلُّم العقيدة، أو من فوائد تعلُّمنا العقيدة الصحيحة - ما يلي:

1- الاقتداء بالرُّسل في تعليم الناس العقيدةَ قبل العمل؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25].

2- تَصفية عقيدتنا من شوائب البدع والشِّرك، وسلامةُ العبد من الكفر والشرك أصلُ النجاة من النار، لكن تمام النجاة يكون بالفقه الذي يُصحِّح الأقوال والأعمال وَفْق مراد الله - عز وجل - ومراد رسوله - صلى الله عليه وسلم - ويُسلم العبادة من الابتداع.

3- الحماية من الوقوع في الشرك ومن الابتداع.

4- العلم بالله الذي يُورث الخشية منه، وعدم الوقوع في معصيته.

5- النجاة من الفِتن؛ فلا نجاةَ من الفتن العقَدية إلا بتعلُّم المُعتقَد الصحيح.

6- محاربة الأفكار والمذاهب العقَدية الباطلة.

7- رفْع الجهل عن أنفسنا.

بطلان الدعوى بأن الإيمان يكفي دون الاهتمام بالعقيدة:

ومن خلال تعلُّمنا أهمية العقيدة، يتبيَّن بُطلان الدعوى بأن الإيمان يكفي دون الاهتمام بالعقيدة؛ حيث إن الإيمان لا يكون إيمانًا إلا إذا صحَّت العقيدة، أمَّا إذا لم تكن العقيدة صحيحة، فليس هناك إيمانٌ ولا دينٌ.

هل تعلُّم العقيدة ضروري؟

ومن خلال تعلُّمنا أهمية العقيدة، يُمكننا أن نُجيب عن سؤال هام، ألا وهو: هل تعلُّم العقيدة ضروري؟

والجواب:

نعم؛ فتعلُّم العقيدة ضرورة من ضرورات الإنسان التي لا غنى له عنها، فالإنسان بحسب فِطرته يَميل إلى اللجوء إلى ربٍّ يَعتقد فيه القوة الخارقة، والسيطرة الكاملة عليه وعلى المخلوقات من حوله، وهذا الاعتقاد يحقِّق له الميل الفطري للتديُّن، ويُشبع نَزعته تلك، والعقيدةُ الإسلامية تقوم على الاعتقاد الصحيح الذي يُوافق تلك الفطرة، ويَحترم عقلَ الإنسان ومكانته في الكون.

أرسل الله الرسل ليدعو الى عبادة الله وحده و توحيده, و كانوا يدعوهم أول ما يدعوهم الى توحيد الله فاذا تم ذلك و وحدوه دعوهم الى باقي العبادات, عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذ جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله في حديث الرسول توجيه الى التدرج في دعوة الناس الى الاسلام, فيبدأ في الأهم فالمهم ولما كان التوحيد هو أصل الاسلام ولا يصح بدونه زكاة ولا صلاة كان هو أول ما يدعى اليه غير المسلم فان اجاب دُعي الى باقي العبادات. و يقول علي بن ابي العز الدمشقي: "ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل. قال تعالى: "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" (الأعراف:59). وقال هود لقومه: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" (الأعراف:65). وقال صالح لقومه: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره (الأعراف:73). وقال شعيب عليه السلام لقومه: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" (الأعراف:85). وقال تعالى: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" (النحل: 36). وقال تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" (الأنبياء:25). وقال: "أمرت أن أقاتل [ص:22] الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله".
شواهد من القرآن[عدل]
قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" وقال: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"

فهذا ما دعى اليه الرسل جميعًا و بدأوا به رسالاتهم, أن وحدوا الله و اعلموا انه وحده الخالق الرازق المحيي المميت مالك السموات و الارض و وحده المستحق للعبادة دون شريك يعبد معه, و في هذا المعنى يقول الشيخ سفر الحوالي: "فهذا هو ما دعا إليه الأنبياء جميعا، دعوا إلى توحيد الله تبارك وتعالى حيث افتتحوا دعوتهم واختتموها بذلك. فإن الشرائع والتعبدات جميعاً إنما هي فروع وتوابع للتوحيد .ومعنى كون التوحيد أول دعوة الرسل: هو أن كل نبي إنما يأتي قومه لينذرهم أنه لا إله إلا الله، ويحذرهم من عبادة الطاغوت." [5]

أنواع التوحيد

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد) و (طه) وآخر (الحشر) وأول (الم تنزيل) السجدة، وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، و قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (آل عمران:64)، وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

<u>والتوحيد أقسام ثلاثة</u>

توحيد الإلهية وتوحيد ربوبية وأسماء وصفات وفي هذا الأخير أدخل الجهم بن صفوان نفي الصفات في مسمى التوحيد! وكلامه واضح الفساد لأنه يستحيل على العاقل أن يؤمن بذاتٍ مجردة عن جميع الصفات أو بعضها حتى!

المحاضرة الثانية
التوحيد
توحيد الربوبية

توحيد الربوبية وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال وهذا القسم المفطورة القلوب على الإقرار به "قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم "

وأشهر من عرف تجاهله وجحوده وإنكاره لله هو فرعون وزعم البعض أن فرعون لمّا قال ما ربّ العالمين كان يسأل عن الماهية وأن المسؤول عنه لمّا لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب والحق أنه استفهام إنكار وجحود قال تعالى: "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً" ففرعون لم يكن نافياً لله غير مثبت له طالباً العلم بماهيته ولذا كانت إجابات موسى عن آياته الواضحة والظاهرة وهو أشهر من أن يجهل !

ومعلوم أن من تكلم فقال أن للعالم صانعان لم يقلّ بأنهما متكافئان فإن الثنوية من المجوس والمانوية وهم من الثنوية قالوا بالأصلين : النور والظلمة وأن العالم صدر عنهما لكنهم اتفقوا أيضاً بأن النور خير من الظلمة وأن النور هو الإله المحمود بينما الظلمة شريرة مذمومة وتنازعوا في الظلمة أيضاً هل هي قديمة أم محدثه .

ومن قال بالتثليث من النصارى فعنده أن صانع العالم واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم والأقانيم فُسِّرت بأنها الخواص تارة والصفات تارة أخرى وتارة بالأشخاص ودليل على أتفاقهم على ذات واحدة هو قولهم: باسم الأب والابن ورو القدس إله واحد.

والخلاصة: أنه لم يقل أحد بأن للعالم صانعان متماثلان في الصفات والأفعال.

<u>دليل التمانع</u>

هو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما كأن يريد أحدهم تحريك جسم والآخر تسكينه فإما أن يحصل مرادهما وهذا ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضِّدين , وإما لا يحصل مرادهما وهذا ممتنع أيضاً لامتناع خلو الجسم من الحركة والسكون!

و يستلزم أيضاً عجز كُلٍّ منهما والعاجز لا يكون إلهاً وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجز لا يصح للإلهية.

في كُلّ شيءٍ له آية .. تدلُ على أنه الواحد
له كل ذرَّاةِ الوجود شواهد .. على أنه الباري الإله المصدر
- تأمل سطور الكائنات فإنها .. من الملك الأعلى إليكَ رسائلُ
وقد كان فيها لو تأملت خطها .. ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل

والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما -مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته- فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع؛ لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية، وتمام الكلام على هذا الأصل معروف في موضعه].أتى الشارح بهذا ليبين أن هذا هو الدليل عند أهل الكلام على أن الخالق واحد، ويسمى دليلاً عقلياً، وتسمى دلالة التمانع، فيقولون: لو كان للعالم صانعان متكافئان كلاهما خالق مستقل مكافئ للآخر فأراد أحدهما تسكين شيء وأراد الآخر تحريكه، أو أراد أحدهما إحياء شخص وأراد الآخر إماتته لاختلفا، فإذا كان العالم له خالقان فقد يختلفان، يقول هذا: سنحيي هذا. ويقول الآخر: سنميته.

تعالى الله! فإذا أراد هذا إحياءه وأراد هذا إماتته واختلفا، فماذا يحصل؟ هل يمكن أن يكون هذا الشخص حياً ميتاً؟! لا يمكن. هل يمكن أن يكون متحركاً ساكناً في آن واحد؟! لا يمكن، فما يمكن أن يحصل مرادهما معاً؛ لأنه جمع بين الضدين، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهما، أو لا يحصل مراد أحد منهما، وكونه لا يحصل مراد كل منهما ممتنع أيضاً، فالجسم لا بد أن يكون إما متحركاً وإما ساكناً، إما حياً وإما ميتاً، فلا يمكن أن يكون خالياً من الحركة وخالياً من السكون، ولا يمكن أن يكون غير حي ولا ميت، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، والذي لا يحصل مراده هو عاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، وهذا يسمى عندهم دليل التمانع، وقد دل على ذلك القرآن في قول الله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء:22] يعني: لو كان مع الله آلهة مساوية له لفسدت المخلوقات، وذلك لما يلزم من اختلاف الأهواء واختلاف الإرادات، فهذا ونحوه مما يدل عقلاً على أن العالم خالقه واحد وهو الله تعالى، وهو المتصرف في هذا الكون كما يشاء.

وجود الشرك في بعض الربوبية

الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقاً خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفه الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك] . إن الشرك في توحيد الربوبية قليل وجوده في الخلق، إلا أن هناك من يشرك شركاً جزئياً، مثل المجوس الذين أشركوا في توحيد الربوبية وجعلوا الخلق من اثنين من النور والظلمة، واعتبروا أن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر، ولم يجعلوهما سواء، بل النور خير والظلمة شريرة، وهم لا يعظمون إلا واحداً، ولهذا فهم يعبدون النار، ومثل بعض المعتزلة الذين يجعلون بعض المخلوقات من إيجاد الحيوانات، ويقولون في الأفعال: إن الإنسان يخلق أفعاله بدون قدرة الله؛ والمجوس يجعلون الوجود عن خالقين، والمعتزلة يجعلونه عن عدد، ولذلك سمي المعتزلة: مجوس هذه الأمة، ولو زعموا أنهم ينزهون الله تعالى عن الظلم؛ لأن عملهم نوع شرك في الربوبية، وإن كانوا لا يعبدون إلا الله، ولكن كونهم يسندون بعض الأفعال إلى غير الله . والمعتزلة يقولون: إن الإنسان يخلق فعله، صدق أنهم مشركون نوع شرك في الربوبية.

وعلى كل حال: فالأصل أن الأمم كلهم يعترفون بتوحيد الربوبية، إلا من شذ، كفرعون الذي كان ينكر ذلك ولكنه كان في باطن الأمر يعترف بأنه مخلوق وأن له خالق، ويوجد في هذه الأزمنة من يسمون بالشيوعيين، وقديماً كانوا يسمون بالدهريين، وهم في الحقيقة معاندون مكابرون، وإلا فلو أعملوا تفكيرهم، ولو حكموا أذهانهم لما بقوا على هذه العقيدة السيئة، ولكن مع المكابرة قلدوا من يقول بها ومن يذهب إليها، فالأصل أن جميع طبقات العالم المكلفين يعترفون بأن للعالم خالقاً، حتى الفلاسفة وإن كانوا ينقسمون إلى دهريين وإلهيين؛ جلهم على الاعتراف بالخالق.

الميثاق

والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق). قال تعالى: وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الأعراف:172]. يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلَّا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم: فمنها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان -يعني: عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا [الأعراف:172] إلى قوله: الْمُبْطِلُونَ [الأعراف:173]).

ورواه النسائي أيضاً و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار : إن الله عزَّ وجلَّ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار). عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله : (لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينَي كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب! مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب! مَن هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داوُد.

قال: رب! كم عمره؟ قال: ستون سنة.

قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة.

فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال: أوَلم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أوَلم تعطها ابنك داوُد؟! قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم.

قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي) وأخرجاه في الصحيحين أيضاً. وفي ذلك أحاديث أُخَر أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميَّز بين أهل النار وأهل الجنة]. يؤمن أهل السنة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [الأعراف:172-173]. فهذه الآية فيها أن الله أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم. ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهور بني آدم

وقد اختُلف في المراد بالذرية المأخوذين هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلهم من آدم؟ وظاهر الآية أنهم من ظهور بني آدم، فقد قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ [الأعراف:172] أي: من كل إنسان أخرج ذريته. ثم كلمهم وخاطبهم وقال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى [الأعراف:172]، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ [الروم:30]. وكما في قول النبي : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تنتج البَهِيْمَة بُهَيْمَةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟)، فأخبر بأن الآدمي يولد على الفطرة، وإنما تتغير فطرته بسبب ما يتلقاه من أبويه أو من أقاربه أو من بيئته ومن ينشأ بينهم، وإلا فلو ترك كل أحد على فطرته لعرف ما خلق له، ولعرف أنَّ له رباً، ولعرف أنه مكلف ولبحث بعد ذلك عن التكاليف التي أُمر بها. ويؤيد هذا أن الفطرة هي الخلقة والابتداء، كما في قوله تعالى: فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً [فاطر:1]: و(فاطرها): منشئها ومبدئها وموجدها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، أي: ابتدأ خلقهم وأوجدهم على غير مثال سبق.

أما القول الثاني -وهو ما ذكر في هذه الأحاديث- فهو قول من الأقوال في معنى الآية، وإن كانت الآية بينها وبينه نوع مخالفة، فهو ينص في هذه الأحاديث على أن الله لما أخرج آدم مسح ظهره واستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، والله تعالى قادر على كل شيء، ولا يُعجزه شيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبره بأنهم ذريته، وأنهم سوف يُخلقون من صلبه وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة. وفي بعض الروايات أن الله استخرج أهل الخير وقال: (هؤلاء للجنة خلقتهم وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء خلقتهم للنار وبعمل أهل النار يعملون)، فميزهم وهم في صلب آدم، وبيَّن

مَن هم السعداء ومَن هم الأشقياء، وعلم أهلَ الجنة مِن أهل النار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لهذه. الإقرار بالربوبية أمر فطري : ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن ، يقال لهم : أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم ، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم (النساء : 135) وليس المراد أن يقول : أشهد على نفسي بكذا ، بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به ، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة ، تقليدا لمن لا حجة معه ، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية ، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها ، وفيه مصلحة لكم ، بخلاف الشرك ، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدو لكم فيه عن الصواب . فإن الدين الذي يأخذه الصبي عن أبويه هو : دين التربية والعادة ، وهو لأجل مصلحة الدنيا ، فإن الطفل لا بد له من كافل ، وأحق الناس به أبواه ، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة ، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل ، وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح ، فإن كان آباؤه مهتدين ، كيوسف الصديق مع آبائه ، قال : واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب (يوسف : 38) ، وقال ليعقوب بنوه : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (البقرة : 133) ، وإن كان الآباء مخالفين الرسل ، كان عليه أن يتبع الرسل ، كما قال تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الآية (العنكبوت : 8)

بعض معاني الربوبية

الخالق الرازق

قوله: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة)

شرح: قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [2]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [3]، (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاء) [4]، (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ) [5]

وقال ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته - ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط اذا أدخل البحر الحديث. [6]. وقوله بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

المحيي المميت :

شرح: الموت صفة وجودية، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم.

قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا. وفي الحديث: أنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار. وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا، كما ورد في العمل الصالح: أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة وورد في القرآن: أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون، الحديث أي قراءة القارىء وورد في الأعمال: أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض.

قوله: (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا)

وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق أسم الخالق قبل إنشائهم

شرح: يعني: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم. وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

المحاضرة الثالثة
التوحيد
(توحيد الألوهية)

قوله: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق)
شرح: يعني أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق.
قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال: له معنى الربوبية ومعنى الخالق دون الخالقية، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضي معاني كثيرة، وهي: الملك والحفظ والتدبير والتربية وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعاني، وهي الربوبية. انتهى.

- وفيه نظر، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضا. روى البخاري عن عمران بن حصين: قال قال أهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم " جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء قبله (وفي رواية معه، وفي رواية غيره) وكان عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض " وفي لفظ: ثم خلق السموات والأرض.
- روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء".
- روى الامام أحمد، وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له أكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة "
- روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي عن عباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتدرون ما هذا قال قلنا السحاب قال والمزن قال قلنا والمزن قال والعنان قال فسكتنا فقال هل تدرون كم بين السماء والأرض قال قلنا الله ورسوله أعلم. قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء ".
- روى أبو داود عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام.
- روى ابن جرير حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثني أبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس " قال وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض "
- عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأراضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما قد وصف لكم "
- عن ابن عباس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال " ان الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويذل ويفعل ما يشاء "
- عن مجاهد عن ابن عباس قال " إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة " قال " واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب. وحافتاه الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، واصله في حجر ملك "

توحيد الألوهية

قوله: (ولا إله غيره)

شرح: هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم، كما تقدم ذكره.

وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الإحتمال.

ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) [1] قال بعده: (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [2]

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في لا إله إلا هو - فقالوا: تقديره: لا إله في الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفيا لوجود الإله.

ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في ري الظمآن فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن إله في موضع المبتدأ على قول سيبويه، وعند غيره اسم لا، وعلى التقديرين فلا بد من خبر المبتدأ، وإلا فما قاله من الإستغناء عن الإضمار فاسد.

وأما قوله: إذا لم يضمر يكون نفيا للماهية - فليس بشيء، لأن نفي الماهية هو نفي الوجود، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فرق بين لا ماهية و لا وجود.

وهذا مذهب أهل السنة، خلافا للمعتزلة، فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود، و إلا الله - مرفوع، بدلا من لا إله لا يكون خبرا ل لا، ولا للمبتدأ. وذكر الدليل على ذلك.

وليس المراد هنا ذكر الاعراب، بل المراد رفع الأشكال الوارد على النحاة في ذلك، وبيان أنه من جهة المعتزلة.

وهو فاسد: فإن قولهم: نفي الوجود ليس تقييدا، لأن العدم ليس بشيء.

[3]..

قال تعالى: (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

ولا يقال: ليس قوله: غيره كقوله: إلا الله، لأن غير تعرب بإعراب الاسم الواقع بعد إلا.

فيكون التقدير للخبر فيهما واحدا. فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا.

بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22] لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما أخبر تعالى عنهم بقوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[لقمان:25] ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا [نوح:23] وقد ثبت في صحيح البخاري وكتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما قبيلة قبيلة].معروف أن الرسل دعوا إلى توحيد العبادة الذي هو توحيد الطلب والقصد، وهو التوحيد الإرادي العملي الذي طلبه الله من عباده وأمرهم به، وضده الشرك الذي هو دعوة غير الله تعالى معه، والأمم السابقة متفقون -كما سمعنا- على أن الخالق لهذا العالم واحد هو الله، ومع ذلك يدعون آلهة غيره ويسمونها آلهة، كما حكى الله عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [الشعراء:71] ، وأنهم قالوا لما كسرها: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبياء:59] وقولهم: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ [الأنبياء:62]، وقولهم: حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ [الأنبياء:68] فسموها آلهة، ومعلوم أنهم يألهونها، أي: يحبونها ويعظمونها ويصرفون لها أنواع التأله، وهكذا فعل المشركون في العهد النبوي، فإن قصدهم إنما هو التقرب إليها. وأما غرضهم منها فقد ذكره الله تعالى في قوله عنهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3] هذه مقالة المشركين، وكذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا: هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ [يونس:18] ، ورد عليهم كما حكى عن الرجل المؤمن بقوله: أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ

بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ [يس:23]، فأخبر بأنهم إنما يريدون شفاعتهم، وأنهم لا يشفعون ولا تغني شفاعتهم شيئاً، وهذا هو قصد المشركين الأولين والمعاصرين سواء، وهو أنهم يريدون شفاعتهم، ويريدون التوسل بهم، ويزعمون أنهم لهم وجاهة ولهم صلاح، فلكونهم ذوي صلاح يشفعون لهم شفاعة تفيدهم إما في العاجل وإما في الآجل.وأول ما حدث هذا الشرك في قوم نوح، كما حكى الله عنهم بقوله: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا [نوح:23] .. الخ، فروى البخاري عن ابن عباس قال: هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح. كانوا رجالاً من أهل العلم ومن أهل العبادة ومن أهل الفضل، فلما ماتوا أسف تلامذتهم عليهم، فجاءهم الشيطان وقال: صوروهم وانسبوا صورهم حتى تتذكروا عبادتهم أو تتذكروا علومهم فتعملوا بها، فصوروا تماثيل وسموها بأسمائهم، هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر، ولما ذهب أولئك الذين صوروهم ونشأ أولاد لهم جهال وصاروا يرون هذه الصور جاءهم الشيطان وقال: آباؤكم ما صوروهم إلا ليعظموهم؛ فإنهم من أهل الصلاح. فعند ذلك عظموهم، وزادوا من تعظيمهم شيئاً فشيئاً إلى أن صاروا يصرفون لهم حق الله، ثم جاء الطوفان وأغرق من على الأرض، ولكن بقيت صور أولئك مدفونة حتى العصر الجاهلي، وأول من أثارها عمرو بن لحي بن خندف الخزاعي، وهو الذي يقول عنه صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار؛ لأنه أول من سيب السوائب وغير دين إبراهيم)، فذكروا أن الشيطان تمثل له في صورة كاهن، وكلام الكهنة يكون مسجوعاً، فقال له: ائت جدة، تجد بها أصناماً معدة، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب. ففعل فأخبره بأسمائها، فتفرقت هذه الأصنام الخمسة في العرب، وصارت معبودة إلى العهد النبوي، وهي صور قديمة من عهد نوح احتفظ بها وبأمثالها وصارت تعبد إلى العهد النبوي، فهذا أول شرك وآخره، وهو الشرك بعبادة الصالحين، وبتسميتهم أولياء أو سادة أو أفاضل أو أشرافاً، وهذه التسمية أوجبت للناس أن يغلوا فيهم حتى صرفوا لهم خالص العبادة. وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء كما أخبر عنهم تعالى بقوله: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3] وهذا يبين أنهم يعترفون بهذا، وأنه صار حجة عليهم، فاعترافهم بتوحيد الربوبية حجة عليهم في التوحيد الذي جحدوه وهو توحيد الإلهية فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [المؤمنون:89] أي: كيف تصرفون عن عبادته وأنتم تعرفون أنه الذي يجير ولا يجار عليه، وأنه الذي بيده ملكوت كل شيء؟ وهو رب السماوات السبع، وهو رب العرش العظيم، وهو الذي له الأرض وله السماوات وله المخلوقات، ومع ذلك تعبدون غيره! أين عقولكم؟ فسئلوا لماذا تعبدون هذه المعبودات؟ فأخبر الله تعالى عنهم بأنهم يقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3] أي: نريد أن يقربونا إليه.
فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية .
توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس .فمن لا يقدر عَلَى أن يخلق يكون عاجزاً. والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً قال تعالى: "أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ" [الأعراف:191].

وقال تعالى: "أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ" [النحل:17].

دليل التمانع في الألوهية :
قوله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (الأنبياء : 22) . وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره ، وهو أنه لو كان للعالم صانعان . . . . . الخ ، وغفلوا عن مضمون الآية ، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره ، ولم يقل : أرباب .
وأيضا فإن هذا إنما هو بعد وجودهما ، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا .
وأيضا فإنه قال : لفسدتا ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل : لم يوجدا . ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة ، بل لا يكون الإله إلا الواحد ، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى ، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون ،الآلهة فيهما متعددة ، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره . فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله ، فإن قيامه إنما هو بالعدل ، وبه قامت السماوات والأرض .
وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك ، وأعدل العدل التوحيد.
فذاك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والإلهية. طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له

1- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية :
ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلا على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول ، ويناز عون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله ، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ كقوله تعالى: قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون الآيات (النمل:59-60)
يقول الله تعالى في آخر كل آية : أإله مع الله أي أءله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى استفهام : هل مع الله إله ؟ كما ظنه بعضهم ، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد (الأنعام : 19) ، وكانوا يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب (ص : 5) . لكنهم ما كانوا يقولون : إن معه إلها جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا . بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات .
وكذلك قوله تعالى : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . وكذلك قوله في سورة الأنعام : (البقرة : 21) قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به (الأنعام : 46) . وأمثال ذلك .
2 – شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية :
شهد الله لنفسه بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم من خلقه، وهذه الشهادة تتضمن مراتب تؤدي إلى الأمر بعبادته وحده لا شريك، وأن ما سواه باطل.
شواهد التوحيد في الفاتحة وآية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو)
مر بنا أن التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، وأن كلاً من النوعين قد بينه الله تعالى في كتابه، وبينته الرسل عليهم السلام حتى قامت الحجة وانقطعت المعذرة، وأن كلاً من النوعين ضروري وشرط في قبول العبادات، فمن لم يحقق هذين النوعين من التوحيد لم تقبل منه عباداته، وهذا هو السبب في أهمية هذا التوحيد الذي هو توحيد العقيدة وتوحيد العمل، ونقرأ الآن بقية الكلام على هذه الأنواع: قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة:2] توحيد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة:3] توحيد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة:4] توحيد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5] توحيد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة:7] الذين فارقوا التوحيد. وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران:18] إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به].يقول: إن القرآن كله يدور حول تقرير التوحيد، كما تقدم أن الأوامر والنواهي في الأحكام تكميل للتوحيد أو أمر بالتوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التوحيد ومن خالف التوحيد، فالله يذكر قصة المكذبين بالتوحيد وكيف أهلكهم، وقصة الرسل ومن نجا معهم؛ لأنهم من أهل التوحيد، وكذلك ذكر الثواب لأهل التوحيد، والعقاب لمن خالف التوحيد، فيقول: إن سورة الفاتحة تتضمن التوحيد، ففي كل آية منها توحيد. فالآية الأولى فيها الحمد، أي: أنه المستحق للحمد وحده، فهو توحيد، لأنه تخصيص للحمد بمن يستحقه.
بيان الله لتلك الشهادة
[والحكم والقضاء بأنه: لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع والبصر والعقل].
السمع :

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها الوحدانية وغيرها، غاية البيان، وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان، ووجده في أصول ديننا؛

البصر:

وأما آياته العيانية الخلقية , فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية .

العقل :

والعقل يجمع بين هذه وهذه , ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل , فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على توحيد الألوهية

فقال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أي القرآن ، فإنه هو المتقدم في قوله : قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ثم قال : أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد فشهد سبحانه لرسوله بقوله : أن ما جاء به حق ، ووعده أن يري [ص: 433] العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء ، فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته . فإن قلت : قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته ، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته ، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا .

قلت : أجل ! هو لعمر الله كما ذكرت ، وشأنه أجل وأعلى ، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه ، وآياته هي الدليل والبرهان . فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته ، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات ، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود : أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص ، فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته ، يستحيل أن يكون على غير ذلك ، فالحياة كلها له ، والعلم كله له ، والقدرة كلها له ، والسمع والبصر والإرادة ، والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والإحسان والبر ، كله خاص له قائم به ، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

ومن كماله المقدس : اطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته ، باطنا وظاهرا ، ومن هذا شأنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به ، وأن يعبدوا معه غيره ؟ وأن يجعلوا معه إلها آخر ؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي كلمته ، ويرفع شأنه ، ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر ، وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفتر ، ساع في الأرض بالفساد ؟ ؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء ، ومن ظن ذلك به ، وجوزه عليه ؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته ، وإن عرف منه بعض صفاته ، كصفة القدرة وصفة المشيئة .

والقرآن مملوء من هذه الطريق ، وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة هم [ص: 434] الذين يستدلون بالله على أفعاله ، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله ، قال الله تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزينأفلا تراه كيف يخبر سبحانه : أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه ، وقال تعالى : أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك هاهنا انتهى جواب الشرط ، ثم أخبر خبرا جازما غير معلق : أنه يمح الله الباطل ويحق الحق وقال تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق ، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده ؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ وهذا في القرآن كثير جدا ، يستدل بكماله المقدس ، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيده ، ويدعو عباده إلى ذلك ، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك ، كما في قوله : هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن

الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن

المحاضرة الرابعة
الدعاء

قوله والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات

شرح : قال تعالى : وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم - : أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً . وإجابة الله لدعاء العبد ، مسلماً كان أو كافراً ، وإعطاؤه سؤله - : من جنس رزقه لهم ، ونصره لهم . وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً ، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه ، إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك . وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله : من لم يسأل الله يغضب عليه . وقد نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :الرب يغضب إن تركت سؤاله.....وبني آدم حين يسأل يغضب

الرد على من زعم عدم فائدة الدعاء

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة الى أن الدعاء لا فائدة فيه ! قالوا : لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء ! ! وقد يخص بعضهم بذلك خواصن العارفين ! ويجعل الدعاء علة في مقام الخواص ! ! وهذا من غلطات بعض الشيوخ . فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام - فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية ، فإن منفعة الدعاء أمر أنشئت عليه تجارب الأمم ، حتى إن الفلاسفة تقول : ضجيج الأصوات في هياكل العبادات ، بفنون اللغات ، يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات ! ! هذا وهم مشركون وجواب الشبهة بمنع المقدمتين : فإن قولهم عن المشيئة الإلهية : إما أن تقتضيه أولا - فـ ثم قسم ثالث ، وهو : أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه ، وقد يكون الدعاء من شرطه ، كما توجب الثواب مع العمل الصالح ، ولا توجبه مع عدمه ، وكما توجب الشبع والري عند الأكل واثرب ، ولا توجبه مع عدمهما ، وحصول الولد بالوطء ، والزرع بالبذر. فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب . فقول هؤلاء - كما أنه مخالف للشرع ، فهو مخالف للحس والفطرة .

ومما ينبغي أن يعلم ، ما قاله طائفة من العلماء ، وهو : أن الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ! ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب كالكلية قدح في الشرع . ومعنى التوكل والرجاء ، يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع وبيان ذلك : أن الإلتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والإستناد إليه . وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ، لأنه ليس بمستقل ، ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله ، فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر .

وقولهم : إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ؟ قلنا : بل قد تكون إليه حاجة ، من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة ، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة . وكذلك قولهم : وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه ؟ قلنا : بل فيه فوائد عظيمة ، من جلب منافع ، ودفع مضار ، كما نبه عليه النبي ، بل ما يعجل للعبد ، من معرفته بربه ، وإقراره به ، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم ، وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه ، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية ، التي هي من أعظم المطالب . فإن قيل : إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد ، كما يفعل من إعطاء المسؤول للسائل ، كان السائل قد أثر في المسؤول حتى أعطاه ؟ ! قلنا : الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتمامه عليه كما قال عمر رضي الله عنه : إني لا أحمل هم الإجابة ، وإنما أحمل هم الدعاء ، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه . وعلى هذا قوله تعالى : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر ، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره ، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ، ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إياه ، كما في العمل والثواب ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه ، وهو الذي

وفقه للدعاء ثم أجابه ، فما أثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله . قال مطرف بن عبد الله بن الشخير ، أحد أئمة التابعين : نظرت في هذا الأمر ، فوجدت مبدأه من الله ، وتمامه على الله ، ووجدت ملاك ذلك الدعاء .

المعنى الصحيح لإجابة الدعاء

وهنا سؤال معروف ، وهو : أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئاً ، أو يعطى غير ما سأل ؟ وقد أجيب عنه بأجوبة ، فيها ثلاثة أجوبة محققة - :

أحدها: أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً ، وإنما تضمنت إجابه الداعي ، والداعي أعم من السائل ، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل . ولهذا قال النبي : ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ . ففرق بين الداعي والسائل ، وبين الإجابة والإعطاء ، وهو فرق بين العموم والخصوص ، كما أتبع ذلك بالمستغفر ، وهو نوع من السائل ، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص . وإذا علم العباد أنه قريب ، يجيب دعوة الداعي ، علموا قربه منهم ، وتمكنهم من سؤاله - : وعلموا علمه ورحمته وقدرته ، فدعوه دعاء العبادة في حال ، ودعاء المسألة في حال ، وجمعوا بينهما في حال ، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة و الاستعانة ، وقد فسر قوله . وقال ربكم ادعوني أستجب لكم - بالدعاء ، الذي هو العبادة ، والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعد ذلك : إن الذين يستكبرون عن عبادتي - يؤيد المعنى الأول **الجواب الثاني**: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال ، كما فسره النبي فيما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي قال: ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال . إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنه من الشر مثلها ، قالوا : يا رسول الله ، إذاً نكثر ، قال : الله أكثر . فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً ، أو مثله من الخير مؤجلاً ، أو يصرف عنه من السوء مثله. **الجواب الثالث**: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب ، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره .

وهكذا سائر الكلمات الطيبات ، من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار ، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته وما يعنيها ، وقد يعارضها مانع من الموانع . ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر- : من هذا الباب . وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة ، أو صادف وقت إجابة ، ونحو ذلك - فأجيبت دعوته ، فيظن أن السر في ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي ، فانتفع به ، فظن أخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب ، وكان غالطاً. وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجاب، فيظن أن السر للقبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجوء إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى. فالأدعية والتعوذات والرقي بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قوياً، والمحل قابلاً، والمانع مفقوداً -: حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة-: لم يحصل الأثر.

::التـــوســـل::

الاستشفاع بالنبي وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء, فيه تفصيل.

فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان, يقسم على الله بأحد من مخلوقاته, فهذا محذور من وجهين: أحدهما: أنه أقسم بغير الله, ولا يجوز الحلف بغير الله, وقد قال: (من حلف بغير الله فقد كفر -أو أشرك-). الثاني: اعتقاده أن لاحد على الله حقا, وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه, كقولة تعالى: (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكذلك ما ثبت في (الصحيحين) من قوله لمعاذ رضي الله عنه, وهو رديفة: (يا معاذ, أتدري ما حق الله على عباده؟) قلت: الله ورسوله أعلم, قال: (حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا, أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟) قلت: الله ورسوله أعلم, (حقهم عليه أن لا يعذبهم). فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق.

لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق, فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير. وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم, وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به, ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به. لأن السبب هو ما نصبه الله سببا.

::لفظ التوسل بالشخص فيه إجمال::

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال, غلط بسببه من لم يفهم معناه فقد يراد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا وهذا في حياته يكون أو لكون الداعي محبا له مطيعا لأمره مقتديا به وإما بمحبة السائل وإتباعه وقد يراد به الأقسام به والتوسل بذاته فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه. وكذلك السؤال بالشيء'قد يراد التسبب به لكونه سببا في حصول المطلوب'وقد يراد به الأقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار, وهو حديث مشهور في ''الصحيحين'' وغيرهما, فان الصخرة انطبقت عليهم, فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة, وكل واحد منهم يقول: فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا مانحن فيه, فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون, فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه به إليه, ويسأله به, لأنه وعد أن يستجيب للذين امنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر فالحاصل أن الشفاعة عند لله ليست كالشفاعة عند البشر فان الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعه في الطلب بمعنى أنه صار به شفعا فيه بعد أن كان وترا فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب منه والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد الا بإذنه فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: "ارفع رأسك, وسل تعطه, وقل يسمع, واشفع تشفع" فيحد له حدا فيدخلهم الجنة, فالأمر كله لله.

وفي "الصحيحين" أن النبي قال: (يا بني عبد مناف, لا أملك لكم من الله من شيء, يا صفية عمة رسول الله لا أملك لك من الله من شيء, يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء). فاذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: (لا أملك لكم من الله من شيء) فما الظن بغيره؟!.

المحاضرة الخامسة

التنبيه على بعض أمور الشرك

الكهانة والعرافة

التنبيه على بعض أمور الشرك: ***الكهانة والعرافة:***

قولة :(ولا نصدق كاهنا ولا عرافا, ولا من يدعي شيئا يخالف الكتاب والسنة, وإجماع الأمة)

ش: روى مسلم والأمام أحمد عن صفية بنت أبي عبيد, عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم, قال:" من أتى عرافا فسأله عن شيء, لم يقبل له صلاة أربعين ليلة". وروى الإمام أحمد في "مسنده", عن أبي هريرة, أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أتى عرافا أو كاهنا, فصدقه بما يقول, فقد كفر بما أنزل على محمد".

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:"ثمن الكلب خبيث,ومهر البغي خبيث, وحلوان الكاهن خبيث", وحلوانه: الذي تسميه العامه حلاوته. ويدخل في هذا مايعطاه المنجم وصاحب الأزلام, والضارب بالحصى, والذي يخط في الرمل.

: : التنجيم : : ***والمنجم يدخل في أسم "العراف" عند بعض العلماء, وعند بعضهم هو في معناه.***

وفي "الصحيحين" عن زيد بن خالد, قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية, على إثر سماء كانت من الليل, فقال: "أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟" قلنا: الله ورسوله أعلم, قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر, فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته, فذلك مؤمن بي, كافر بالكوكب, وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا, فذلك كافر ب, مؤمن بالكواكب".

وفي "صحيح مسلم" و" مسند الإمام أحمد", عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أربع في أمتي من أمر الجاهلية, لا يتركونهن: الفخر في الأحساب, والطعن في الأنساب, والاستسقاء بالنجوم, و النياحة".والنصوص عن النبي ﷺ و أصحابه وسائر الأئمة, عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها. وصناعة التنجيم, التي مضمونها الإحكام والتأثير, وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية: صناعة محرمة بالكتاب والسنة, بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين.

الشعوذة والدجل : والذي يفعلون الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة منهم:أهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له أو يدعي الحال من أهل المحال من المشايخ النصابين والفقراء الكذابين والطرفية المكارين فهولاءيستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عنا لكذب والتلبيس.وقد يكون في هؤلاء من يستحقا لقتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شئ من الشريعة.

السحر : قال تعالى:(ولا يفلح الساحر حيث أتى)

وقال تعالى:(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتب يؤمنون بالجبت والطغوت)

وقد تنازع العلماء في الحقيقة السحر وأنواعه والأكثرون يقولون :انه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول نشئ ظاهر إليه وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل واتفقوا كلهم على أن ماكان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرب اليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك فانه كفر وهو من أعظم أبواب الشرك فيجب غلقه بل سده.

الرقى الشركية: واتفقوا كلهم أيضا على أن كل رقيه وتعزيم أو قسم فيه شرك بالله فانه لايجوز التكلم به وان أطاعته به الجن أو غيرهم وكذلك كل كلام فيه كفر لايجوز التكلم به وكذلك الكلام الذي لايعرف معناه لايتكلم به لإمكان أن يكون فيه شرك لايعرف ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :(لأبأس بالرقى مالم تكن شركا)

الاستعاذة بالجن: ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال تعالى:(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا)

فاستمتاع الانسي بالجني:في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشئ من المغيبات ونحو ذلك واستمتاع الجن بالإنس:تعظيمه إياه واستعانته به واستغاثته وخضوعه له.

القول بالحقيقة والشريعة: قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهورد)

فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين مع تركه لمتابعه الرسول في أقواله وأفعاله وأحوله أنه من أولياء الله ويفضله على متبعي طريقه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ضال مبتدع مخطئ في اعتقاده فان ذلك الأبله امان يكون شيطانا زندقيا أوزوكاريا متحيلا أو مجنونا معذورا !فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله؟!أو يساوى به؟!ولا يقال: يمكن أن يكون هذا متبعا في الباطن وان كان تاركا للإتباع في الظاهر؟فان هذا خطأأيضا بل الواجب متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا.

والطائفة الملاميه وهم الذين يفعلون مايلامون عليه ويقولون :نحن متبعون في الباطن ويقصدون إخفاء المرائين !ردوا باطلهم بباطل آخر!!. **وأما الذين يتعبدون بالرياضيات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا قد طبع الله على قلوبهم.كما قد ثبت عن النبي ﷺأنه قال :"من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر,طبع الله على قلبه".وكل من عدلعن إتباع سنة الرسول, إن كان عالما بها فهو مفضوب عليه والافهو ضال.وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدنئ الذي يدعبه بعض من عدم التوفيق: فهو ملحد زنديق.فان موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته** ولهذا قال له:أنت موسى بني إسرائيل؟قال :نعم.ومحمد ﷺمبعوث إلى جميع الثقلين,و إذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض, إنما يحكم بشريعة محمد,فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى,أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه,وليشهد شهادة الحق فانه مفارق لدين الإسلام بالكلية ,فضلا عن أن يكون من أولياء الله ,وإنما هو من أولياء الشيطان.وهذا الموضوع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة,فحرك تر.وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا!!فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺحين أحصر عنها, وهو يود منها نظرة؟!.وجوب السعي في أزلة تلك المنكرات:والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في أزلة هولاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمال والحصى,ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات,أو أن يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك. ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته ـ مع قدرته على ذلك ـ قوله تعالى: (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانو يفعلون)

وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت باجماع المسلمين.وثبت في "السنن" عن النبي ﷺبرواية الصديق رضـ الله عنه ـى أنه قال :(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه).

المحاضرة السابعة

توحيد الأسماء والصفات

لايعلم كيف هو إلاهو :
قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)
شرح: قال الله تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْما) [1]
قال في الصحاح: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته. فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم.قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يظن أنه على صفة كذا، والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به.
والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [2] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [3] الرد على المشبهة
قوله : (ولا يشبهه الأنام) .
ش : هذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه [ص: 85] وتعالى ، قال عز وجل : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (الشورى : 11) . وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر : لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . انتهى .
وقال نعيم بن حماد : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال إسحاق بن راهويه : من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم . وقال : علامة جهم وأصحابه ، دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب : أنهم مشبهة ، بل هم المعطلة . وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف : علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة ، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبها ، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة ، القرامطة والفلاسفة ، وقال : إن الله لا يقال له : عالم ولا قادر - : يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه ، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه ، ومن أثبت الاسم وقال : هو مجاز ، كغالية الجهمية ، يزعم أن من قال : إن الله عالم حقيقة ، قادر حقيقة : فهو مشبه ، ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة - قال لمن أثبت الصفات : إنه مشبه ، وإنه : مجسم . ولهذا كتب نفاة الصفات ، من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم ، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة ، ويقولون في كتبهم : إن من جملة المجسمة قوما يقال لهم : المالكية ، ينسبون إلى رجل يقال له : مالك بن أنس ، وقوما يقال لهم الشافعية ، ينسبون إلى رجل يقال له : محمد بن إدريس ! حتى الذين يفسرون القرآن منهم ، كعبد الجبار ، والزمخشري ، وغيرهما ، يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالرؤية - مشبها ، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف . ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، كم

تقدم من كلام أبي حنيفة رحمه الله أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا.وهذا معنى قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [3] **فنفى المثل وأثبت الصفة نوعا التشبيه :**

التشبيه نوعان : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله ، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني ، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق ، كعباد المسيح ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والقبور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

النفي والتشبيه من أمراض القلوب

قوله: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه)

شرح: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن، قال الله تعالى: { فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } [1]، فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً } [2] وقال تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [3]. فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه، فإن شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ .

، وشبه التشبيه غلو مجاوزة للحد فيما جاء به الرسول . وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [4]، ونفي الصفات كفر، فان الله تعالى يقول: ﴿وهو السميع البصير﴾وهورد على المعتزلة . فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) [12] ، وبين قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [13] ؟

ويستدل بقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [14] حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهو أحمد بن أبي دؤاد القاضي، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر، جهم بن صفوان: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [15] فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بمنه وكرمه. **تنزيه الرب بالذي هو وصفه:**

قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية)

فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية

: يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص. فقوله: موصوف بصفات الوحدانية. مأخوذ من قوله تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ } [1].

وقوله: منعوت بنعوت الفردانية. من قوله تعالى: { اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [2].

وقوله: ليس في معناه أحد من البرية من قوله تعالى: ولم يكن له كفواً أحد. وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه.

والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذات، والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية. وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد

في ذاته، منفرد بصفاته. وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير. وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق. و ليس كمثله شيء. أكمل في التنزيه من قوله: ليس في معناه أحد من البرية.

أزلية صفات الله وأبديتها

قوله :ما زالَ بصفاته قديما قبلَ خلقه، لم يَزدَد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، و كما كان بصفاته أزليّا، كذلك لا يزال عليها أبديّا.

شرح: أي: أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده. ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الإختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والاماتة والاحياء، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء، والنزول، والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلمًا بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم، لأنه لآفة كالصغر.

والخرس، ثم تكلم يقال -: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته الكتابة.

وحول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال:

فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة لشيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن - فهذا نفي صحيح.

وإن أريد به نفي الصفات الإختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والإستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته - فهذا نفي باطل.

والشيخ رحمه الله أشار بقوله: ما زال بصفاته قديما قبل خلقه إلى آخر كلامه - إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة.

فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادرا على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادرا عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد أن كان ممتنعا، وأنه انقلب من الإمتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي!

وعلي ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعا منه. وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته.

تنزيه الله عن الحدود والغايات والأعضاء

قوله : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) . ش : أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة ، وهي : أن الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بين ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي . لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها

اللغوي . ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وباطلا ، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به ، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلا ، مخالفا لقول السلف ، ولما دل عليه الكتاب والميزان . ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن [ص: 261] نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفيا ولا إثباتا ، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون . فالواجب أن ينظر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفيناه . والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي ، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني . وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنى صحيحا قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ، ونحو ذلك . مراد المصنف من هذا الكلام

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة ، كداود الجواربي وأمثاله القائلين : إن الله جسم ، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . [ص: 262] فالمعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقا وباطلا ، فيحتاج إلى بيان ذلك . وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدا ، وأنهم لا يحدون شيئا من صفاته .

قال أبو داود الطيالسي : كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة - لا يحدون [ص: 263] ولا يشبهون ولا يمثلون ، يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر . وسيأتي في كلام الشيخ : وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به . فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم . سئل عبد الله بن المبارك : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على العرش ، بائن من خلقه ، قيل : بحد ؟ قال : بحد ، انتهى .

الخطأ في فهم النفي الساق :

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات - فيتسلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه . قال أبو حنيفة رضي الله عنه في ((الفقه الأكبر)) : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، انتهى . وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه ، ثابت بالأدلة القاطعة ، قال تعالى : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي (ص : 75) . والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه (الزمر : 67) . وقال تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه (القصص : 88) . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (الرحمن : 27) . [ص: 265] وقال تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك (المائدة : 116) . وقال تعالى : كتب ربكم على نفسه الرحمة (الأنعام : 54) . وقال تعالى : واصطنعتك لنفسي (طه : 41) . وقال تعالى : ويحذركم الله نفسه (آل عمران : 28) . ولا يصح تأويل من قال : إن المراد باليد القدرة ، فإن قوله : لما خلقت بيدي (ص : 75) . لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صح ذلك لقال إبليس : وأنا أيضا خلقتني بقدرتك ، فلا فضل له علي بذلك . فإبليس - مع كفره - كان أعرف بربه من الجهمية . ولا دليل لهم في قوله تعالى : أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (يس : 71) . لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة . ولم يقل : ((أيدي)) مضاف إلى ضمير المفرد ، ولا ((يدينا)) بتثنية اليد مضافة إلى ضمير الجمع . فلم يكن قوله : مما عملت أيدينا نظير قوله : لما خلقت بيدي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : حجابه النور ، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها

أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ - سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية ، تعالى الله عن ذلك ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : الذين جعلوا القرآن عضين (الحجر : 91) . والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع . وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة . وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى .وأما لفظ الجهة ، فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق ، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وإن أريد بالجهة أمر عدمي ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك إلا الله وحده . فإذا قيل : أنه في جهة بهذا الاعتبار ، فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع ، عال عليه . وقول الشيخ رحمه الله : ((لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)) هو حق ، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه .
وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه . فإذا جمع بين كلاميه ، وهو قوله : ((لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)) وقوله : ((محيط بكل شيء وفوقه)) علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء ، ولا يحيط به شيء ، كما يكون لغيره من المخلوقات ، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالي عن كل شيء .
لكن بقي في كلامه شيئان :
أحدهما :أن إطلاق مثل هذا اللفظ - مع ما فيه من الإجمال والاحتمال - كان تركه أولى ، وإلا تسلط عليه ، وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو ، وإن أجيب عنه بما تقدم ، من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته ، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى
الثاني : أن قوله : ((كسائر المبتدعات)) يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوي وفي هذا نظر . فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي ، ص: فممنوع ، فإن العالم ليس في عالم آخر ، وإلا لزم التسلسل ، وإن أراد أمرا عدميا ، فليس كل مبتدع في العدم ، بل منها ما هو داخل في غيره ، كالسماوات والأرض في الكرسي ، ونحو ذلك ، ومنها ما هو منتهى المخلوقات ، كالعرش . فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات ، قطعا للتسلسل ، كما تقدم . ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال : بأن ((سائر)) بمعنى البقية ، لا بمعنى الجميع ، وهذا أصل معناها ، ومنه ((السؤر)) ، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء . فيكون مراده غالب المخلوقات ، لا جميعها ، إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع ، فيكون المعنى : أن الله تعالى غير محوي - كما يكون أكثر المخلوقات محويا ، بل هو غير محوي - بشيء ، تعالى الله عن ذلك . ولا نظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول أن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفي النقيضين ، كما ظنه بعض الشارحين ، بل مراده : أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته ، وأن يكون مفتقرا إلى شيء منها ، العرش أو غيره . أولاً : صفات الذات
1- قدرته سبحانه :
قوله : (ولا شيء يعجزه) .
ش : لكمال قدرته . قال تعالى : إن الله على كل شيء قدير (البقرة : 20) . وكان الله على كل شيء مقتدرا (الكهف : 45) . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا (فاطر : 44) . وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم (البقرة : 255) . لا يؤوده أي : لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى : ولا يظلم ربك أحدا (الكهف : 49) ، لكمال عدله . لا

يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض (سبإ : 3) ، لكمال علمه . وقوله تعالى : وما مسنا من لغوب (ق : 38) ، لكمال قدرته . لا تأخذه سنة ولا نوم (البقرة : 255) لكمال حياته وقيوميته . لا تدركه الأبصار (الأنعام : 103) ، لكمال جلاله وعظمته [ص: 69] **وكبريائه ، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه ، ألا يرى أن قول الشاعر :**

قبيلة لا يغدرون بذمه () ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده ، وتصغيرهم بقوله : قبيلة علم أن المراد عجزهم وضعفهم ، لا كمال قدرتهم .

تفصيل الإثبات وإجمال النفي :

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلا ، والنفي مجملا ، عكس طريقة أهل الكلام المذموم : فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل ، يقولون : ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ... إلى آخره , . وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلت للسلطان : أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك ! لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقا ، وإنما تكون مادحا إذا أجملت النفي فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل . فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب . والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة . فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده . والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضا جميلا ، أو يبينوا حاله تفصيلا ، ويحكم عليه بالكتاب والسنة ، لا يحكم به على الكتاب والسنة . وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى : ولا شيء يعجزه من النفي المذموم ، فإن الله تعالى قال : وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا (فاطر : 44) ، فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز ، وهو كمال العلم والقدرة ، فإن العجز إنما ينشا إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل ، وإما من عدم علمه به ، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو على كل شيء قدير ، وقد علم ببدائه العقول والفطر كمال قدرته وعلمه ، فانتفى العجز ، لما بينه وبين القدرة من التضاد ، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلها ، تعالى الله عن ذكر ذلك علوا كبيرا . تحريف المعتزلة لمعنى قدرته على كل شيء :قوله : (ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . ش : ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه . والكلام على (كل) وشمولها وشمول كل [في كل] مقام بحسب ما يحتف به من القرائن ، يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى . وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى : والله على كل شيء قدير (البقرة : 284) ، فقالوا : إنه قادر على كل ما هو مقدور له ، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم ، وتنازعوا : هل يقدر على مثلها أم لا ؟ ! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال : هو عالم بكل ما يعلمه ، وخالق لكل ما يخلقه ، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها . فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء . وأما أهل السنة ، فعندهم أن الله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج في هذا . وأما المحال لذاته ، مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة ، فهذه لا حقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى شيئا ، باتفاق العقلاء . ومن هذا الباب : خلق مثل نفسه ، وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال . وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة ، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير . - صفة العلم :

قوله: (خلق الخلق بعلمه)

شرح: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق ايضا بمعنى: قدر.

والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق.وقوله: بعلمه في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالما بهم، قال تعالى: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير)

وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبد العزيز المكي صاحب الإمام الشافعي رحمه الله وجليسه، في كتاب الحيدة، الذي حكى فيه مناظرته بشرا المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى: فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريرا له، و بشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نفي الجهل لا يكون صفة مدح، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفي الجهل.

فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه.

الأدلة العقلية على إثبات صفة العلم :

الدليل العقلي على علمه تعالى:

أ- **أنه يستحيل ايجاده الأشياء بالجهل، ولأن ايجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد: هو العلم بالمراد، فكان الايجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالايجاد مستلزم للعلم.**

ب- **بولأن المخلوقات فيها من الأحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، .**

ج- ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما.

وهذا له طريقان: أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم - كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات، التي هي المخلوقات - فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به. والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوقات، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

المحاضرة السابعه
طرق القرآن في تقرير
(توحيد الألوهية)

طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له

1- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية :

ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلا على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول ، وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله ، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ كقوله تعالى : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون الآيات (النمل : 59 - 60)

يقول الله تعالى في آخر كل آية : أإله مع الله أي أءله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار ، يتضمن نفي ذلك ، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى استفهام : هل مع الله إله ؟ كما ظنه بعضهم ، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد (الأنعام : 19) ، وكانوا يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب (ص : 5) . لكنهم ما كانوا يقولون : إن معه إلها جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا . بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات .

وكذلك قوله تعالى : ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . وكذلك قوله في سورة الأنعام : (البقرة : 21) قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به (الأنعام : 46) . وأمثال ذلك .

2 – شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية :

شهد الله لنفسه بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم من خلقه، وهذه الشهادة تتضمن مراتب تؤدي إلى الأمر بعبادته وحده لا شريك، وأن ما سواه باطل.

شواهد التوحيد في الفاتحة وآية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو)

مر بنا أن التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، وأن كلاً من النوعين قد بينه الله تعالى في كتابه، وبينته الرسل عليهم السلام حتى قامت الحجة وانقطعت المعذرة، وأن كلاً من النوعين ضروري وشرط في قبول العبادات، فمن لم يحقق هذين النوعين من التوحيد لم تقبل منه عباداته، وهذا هو السبب في أهمية هذا التوحيد الذي هو توحيد العقيدة وتوحيد العمل، ونقرأ الآن بقية الكلام على هذه الأنواع:قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة:2] توحيد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة:3] توحيد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة:4] توحيد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5]

توحيد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة:7] الذين فارقوا التوحيد.وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران:18]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به].يقول: إن القرآن كله يدور حول تقرير التوحيد، كما تقدم أن الأوامر والنواهي في الأحكام تكميل للتوحيد أو أمر بالتوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التوحيد ومن خالف التوحيد، فالله يذكر قصة المكذبين بالتوحيد وكيف أهلكهم، وقصة الرسل ومن نجا معهم؛ لأنهم من أهل التوحيد، وكذلك ذكر الثواب لأهل التوحيد، والعقاب لمن خالف التوحيد، فيقول: إن سورة

الفاتحة تتضمن التوحيد، ففي كل آية منها توحيد.فالآية الأولى فيها الحمد، أي: أنه المستحق للحمد وحده، فهو توحيد، لأنه تخصيص للحمد بمن يستحقه.

بيان الله لتلك الشهادة

[والحكم والقضاء بأنه: لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع والبصر والعقل].

السمع :

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها الوحدانية وغيرها، غاية البيان، وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان، ووجده في أصول ديننا؛

البصر:

وأما آياته العيانية الخلقية , فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية .

العقل :

والعقل يجمع بين هذه وهذه , ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل , فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على توحيد الألوهية

فقال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أي القرآن ، فإنه هو المتقدم في قوله : قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ثم قال : أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد فشهد سبحانه لرسوله بقوله : أن ما جاء به حق ، ووعده أن يري [ص: 433] العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء ، فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

فإن قلت : قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته ، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته ، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا .

قلت : أجل ! هو لعمر الله كما ذكرت ، وشأنه أجل وأعلى ، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه ، وآياته هي الدليل والبرهان .

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته ، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات ، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود : أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص ، فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته ، يستحيل أن يكون على غير ذلك ، فالحياة كلها له ، والعلم كله له ، والقدرة كلها له ، والسمع والبصر والإرادة ، والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والإحسان والبر ، كله خاص له قائم به ، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

ومن كماله المقدس : اطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته ، باطنا وظاهرا ، ومن هذا شأنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به ، وأن يعبدوا معه غيره ؟ وأن يجعلوا معه إلها آخر ؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي كلمته ، ويرفع شأنه ، ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر ، وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفتر ، ساع في الأرض بالفساد ؟ ؟ ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء ، ومن ظن ذلك به ، وجوزه عليه ؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته ، وإن عرف منه بعض صفاته ، كصفة القدرة وصفة المشيئة .

والقرآن مملوء من هذه الطريق ، وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة هم [ص: 434] الذين يستدلون بالله على أفعاله ، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله ، قال الله تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزينأفلا تراه كيف يخبر سبحانه

: أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه ، وقال تعالى : أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك هاهنا انتهى جواب الشرط ، ثم أخبر خبرا جازما غير معلق : أنه يمح الله الباطل ويحق الحق وقال تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق ، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده ؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ وهذا في القرآن كثير جدا ، يستدل بكماله المقدس ، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيده ، ويدعو عباده إلى ذلك ، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك ، كما في قوله : هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن

المحاضرة الثامنة

تابع توحيد

الأسماء والصفات

هو الأول والآخر

3- هو الأول والآخر :

قوله:(قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء)

قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء

ش: قال الله تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِر) [2]. وقال : اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء. فقول الشيخ قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء هو معنى أسمه الأول والآخر. فقول الشيخ: (قديم بلا ابتداء، دائم لا انتهاء) هو معنى اسمه: الأول والآخر.والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته؛ قطعاً للتسلسل.

القديم ليس من الأسماء الحسنى :

[وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى (القديم)، وليس هو من الأسماء الحسنى، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم للعتيق، وهذا حديث للجديد، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى : حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [يس:39]، والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم.

ولا ريب أنه إذا كان مستعملا في نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها، فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به.والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى، وجاء الشرع باسمه (الأول)، وهو أحسن من القديم؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة].

قوله : (لا يفنى ولا يبيد) .

ش : إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل : كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (الرحمن : 26 - 27) . والفناء والبيد متقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد ، وهو أيضا مقرر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

4- حياته وقيوميته :

قوله: (حي لا يموت قيوم لا ينام)

شرح: قال تعالى: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) [1]، فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته.

وقال تعالى: (ألم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) [2] وقال تعالى: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) [3] وقال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) [4] وقال تعالى: (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُو) [5] وقال : إن الله لاينام ولا ينبغي له أن ينام، الحديث.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه: فمن ذلك: أنه حي لا يموت، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون.ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسنة، دون خلقه، فإنهم ينامون.

وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف، بصفات الكمال، لكمال ذاته. فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَان) فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة، وهي للمخلوق -: لأنا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمه لها، هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة، فهي دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لزم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى.
وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.
واعلم أن هذين الاسمين، أعني: الحي القيوم مذكوران في القرآن معا في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: أنهما الأسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ .

مايدل عليه اسم القيوم :
ويدل أيضا على كونه موجودا بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود.
والقيوم أبلغ من القيام لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه، باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة.
وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان، أصحهما: أنه يفيد ذلك.
وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه، لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل، فإن الافل قد زال قطعا، أي: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال، موصوفا بصفات الكمال.
واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبدا. ولهذا كان قوله: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي .
فعلى هذين الإسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها.
اقتران القيوم بالحي يستلزم صفات الكمال :
واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبدا .
ولهذا كان قوله : الله لا إله إلا هو الحي القيوم (البقرة : 255) . أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺفعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها ، وإليهما ترجع عانيها .
فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها ، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة .
وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه . المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته . فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام .
قوله:(وهو مستغن عن العرش وما دونه,محيط بكل شيء وفوقه , وقد أعجز عن الإحاطة خلقه)
أ- استغنائه عن خلقه
وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجز عن الاحاطة خلقه
شرح : أما قوله : وهو مستغن عن العرش وما دونه . فقال تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} وقال تعالى : {وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لأنه لما ذكر العرش والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوق السافل ، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي ، محيطاً به ، حاملاً له ، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه .
فانظر إلى السماء ، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يلزم من علوه ذلك .
ب- إحاطته بكل شيء :

أما كونه محيطاً بكل شيء ، فقال تعالى: { وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ } ...{ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ } { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا }.
وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما المراد : إحاطة عظمته . وسعة علمه وقدرته ، وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة .

كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن - إلا كخردلة في يد أحدكم .
ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة ، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها ، وإن شاء جعلها تحته ، وهو في الحالين مباين لها ، عال عليها فوقها من جميع الوجوه ، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف .
العلو والفوقية :

وأما كونه فوق المخلوقات ، فقال تعالى: { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }، { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ }]
وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ، أنه قال : لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرشرح : أن رحمتي سبقت غضبي وفي رواية : تغلب غضبي.
وروى مسلم عن النبي ، في تفسير قوله تعالى: { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) والمراد بالظهور هنا: العلو، ومنه قوله تعالى: { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ }، أي يعلوه . فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته ، واسمان لعلوه وقربه .
وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها ، أنها كانت تفخر على أزواج النبي ، وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات .
الأدلة على إثبات العلو والفوقية :
أولا : الأدلة السمعية :
والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ، التي تقرب من عشرين نوعاً :
أحدها : التصريح بالفوقية مقروناً بأداة : من ، المعينة للفوقية بالذات ، كقوله تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} .
الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة؛ كقوله: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} .
الثالث: التصريح بالعروج إليه؛ نحو: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} ,وقوله : (فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم).
الرابع: التصريح بالصعود إليه؛ كقوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} .
الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه؛ كقوله تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}. وقوله: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} .
السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً، وقدراً، وشرفاً؛ كقوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ..{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ..{إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [26]
السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ..{ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ..{ تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ..{ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } ..{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } { حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }
الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} . {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} . ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصاً . وقول النبي في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : أنه عنده فوق العرش .
التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما أن تكون في بمعنى على ، وإما أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .
العاشر : التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصاً بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات ، مصاحباً في الأكثر لأداة : ثم الدالة على الترتيب والمهلة .
الحادي عشر : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى ، كقوله : إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً . والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع ، كما يأتي إن شاء الله تعالى .
الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل .
الثالث عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر ، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله ، في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : أنتم

مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا . نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلاً : اللهم أشهد . فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله ، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه : اللهم أشهد ، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين ، وأدى رسالة ربه كما أمر ، ونصح أمته غاية النصيحة ، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين ، وحذلقة المتحذلقين ! والحمد لله رب العالمين .

الرابع عشر : التصريح بلفظ : الأين كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه : أين الله ، في غير موضع .

الخامس عشر : شهادته لمن قال إن ربه في السماء - بالإيمان .

السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات ، فقال : { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا } . فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي محمدي .

السابع عشر : إخباره : أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار .

الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى ، من الكتاب والسنة ، وإخبار النبي أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، فلا يرونه إلا من فوقهم ، كما قال : بينا أهل الجنة في نعيمهم ، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله تعالى : { سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } . ثم يتوارى عنهم ، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم .

ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية . ولهذا طرد الجهمية الشقين ، وصدق أهل السنة بالأمرين معاً ، وأقروا بهما ، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذباً بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل ، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله ! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك !

بعض كلام السلف في إثبات العلو :

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جداً : فمنه : ما روى شيخ الإسلام أبو اسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق ، بسنده إلى مطيع البلخي : أنه سأل أبا حنيفة عمن قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض ؟ فقال : قد كفر ،

لأن الله يقول : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وعرشه فوق سبع سماواته ، قلت : فإن قال : إنه على العرش ، ولكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر، لأنه أنكر أنه في السماء ، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر . وزاد غيره : لأن الله في أعلى عليين ، وهو يدعى من أعلى ، لا من أسفل . انتهى .

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم ، مخالفون له في كثير من اعتقاداته . وقد ينتسب إلى مالك و الشافعي و أحمد من يخالفهم في

ثانيا :ثبوت العلو بالعقل :

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ، ثابت بالعقل والفطرة ، أما ثبوته بالعقل ، فمن وجوه :

أحدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ، إما أن يكون أحدهما ساريا في الآخر قائما به كالصفات ، وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم ، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجا عن ذاته ، والأول باطل : أما أولا : فبالاتفاق ، وأما ثانيا : فلأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والثاني يقتضي كون العالم واقعا خارج ذاته ، فيكون منفصلا ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه - غير معقول .

الثالث : أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه - : يقتضي نفي وجوده بالكلية ، لأنه غير معقول : فيكون موجودا إما داخله وإما خارجه . والأول باطل فتعين الثاني ، فلزمت المباينة .

ثالثا : ثبوت العلو بالفطرة :

وأما ثبوته بالفطرة ، فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى . وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ، ويقول : كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ! فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط

: يا الله ، إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل ! وأظنه قال : وبكى ! وقال : حيرني الهمذاني حيرني ! أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده ، من غير أن يتلقوه من المعلمين ، [ص: 391] يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو .

اعتراض وجوابه :

وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته ، لأنه أنكره جمهور العقلاء ، فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء ، بل هو قضية وهمية خيالية .

والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه ، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة ، وهو أن يقال : إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل ، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم ردا ، فإن كان قولنا باطلا في العقل ، فقولكم أبطل ، وإن كان قولكم حقا مقبولا في العقل ، فقولنا أولى أن يكون مقبولا في العقل . فإن دعوى الضرورة مشتركة .

فإنا نقول : نعلم بالضرورة بطلان قولكم ، وأنتم تقولون كذلك ، فإذا قلتم : تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل ، قابلناكم بنظير قولكم ، وعامة فطر الناس ، - ليسوا منكم ولا منا - يوافقونا على هذا ، فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولا ترجحنا عليكم ، وإن كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية ، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية ، وبطلت عقلياتنا أيضا ، وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم ، فنحن مختصون بالسمع دونكم ، والعقل مشترك بيننا وبينكم .

فإن قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا ؟ قيل : ليس الأمر كذلك ، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم ليس فوق العالم وليس فوق .العالم شيء موجود ، وأنه لا مباين للعالم ولا حال في العالم - : طائفة من النظار ، وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه .

اعتراض وجوابه :

واعترض على الدليل الفطري : أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء ، كما أن الكعبة قبلة للصلاة ، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض ؟ وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه :

أحدها : أن قولكم : إن السماء قبلة للدعاء - لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

الثاني : أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة ، فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة ، أو إن له قبلتين : إحداهما الكعبة والأخرى السماء - : فقد ابتدع في الدين ، وخالف جماعة المسلمين .

الثالث : أن القبلة : هي ما يستقبله العابد بوجهه ، كما تستقبل [ص: الكعبة في الصلاة والدعاء ، والذكر والذبح ، وكما يوجه المحتضر والمدفون ، ولذلك سميت وجهة . والاستقبال خلاف الاستدبار ، فالاستقبال بالوجه ، والاستدبار بالدبر ، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازا ، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ، وهذا لم يشرع ، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازا ، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه ، بل نهوا عن ذلك . ومعلوم أن التوجه بالقلب ، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري ، يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل ، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله ، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله ، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل ، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة .

وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر ، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك ، بخلاف الداعي ، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده .

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته ! هذا لا يخطر في قلب ساجد . لكن يحكى عن بشر المريسي .أنه سمع وهو يقول في سجوده : سبحان ربي الأسفل ! ! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال حري أن يتزندق ، إن لم يتداركه الله برحمته ، وبعيد من مثله الصلاح ، قال تعالى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام : 110] . وقال تعالى : فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف : 5] . فمن لم يطلب

الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان . نسأل الله العفو والعافية .
وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خلقه - أي لا يحيطون به علما ولا رؤية ، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه محيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء.

المحاضرة العاشرة

الرد على المعتزلة

ومعنى القرآن

الرد على المعتزلة في مسألة الكلام :
وأما استدلالهم بقوله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }، والقرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم كل فيكون مخلوقاً ! ! فمن أعجب العجب. وذلك: أ -أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم كل، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْر } ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً لزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل. وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم كل، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
ب- وعموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: { تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ } ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير. وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام. إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة الى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة.
والمراد من قوله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ،أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الاشارة إلى هذا المعنى عند قوله: ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه.
ج- بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم. فاذا كان قوله تعالى: الله خالق كل شيء مخلوقاً، لا يصح أن يكون دليلاً.

2 - وأما استدلالهم بقوله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }، فما أفسده من استدلال ! فإن جعل إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } وقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ* وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى: { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً } وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً } وقال تعالى: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } وقال تعالى: { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً } ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً .
2- وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: { نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ } على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ } والنداء: هو الكلام من بعد: فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ثم قال: فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم ! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة، لكانت الشجرة هي القائلة: { يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } وهل قال: { إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } غير رب العالمين؟
. وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ ولو صح للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه! وكذلك ما خلقه في الحيوانات, ولا يفرق بين نطق وأنطق. وإنما قالت الجلود:(أنطقنا الله],ولم تقل نطق الله ,بل يلزم

ان يكون متكلماً بكل كلام خلقه بغيره ,زورا كان أو كفراً أو هذياناً!!تعالى الله عن ذلك ألزم الإمام عبدا لعزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون ,قال عبد العزيز يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول إن الله خلق القرآن, أو خلقه قائما بذاته ونفسه, أو خلقه في غيره ؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشراً فقد انقطع .فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة ولا يكون فيه شيء مخلوق وإن قال :خلقه في غيره فيلزم النظر والقياس أن كل كلام خلقه في غيره فهو كلامه ،وهو محال أيضاً ،وإن قال خلقه في نفسه وذاته فهو محال ؛لا يكون الكلام إلا من المتكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ،و لا العلم إلا من عالم ،ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته

4-قولهم :إنه يلزم من ذلك قيام الحوادث به سبحانه:

فإذا قالوا لنا :فهذا يلزم منه أن يكون الحوادث قامت به. قلنا هذا القول مجمل, ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول, لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه, بل الذي أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذي تكلم, والكلام قائم به لا بغيره, وأنه هو الذي تكلم به وقاله, كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك:(ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بوحي يُتلى),ولو كان المراد في ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه ,إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

الرد على الكلابية والأشاعرة ومن وافقهم :

وكثير من متأخري الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل في الدلالات، لا في المدلول. وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام. قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً !

وهذا الكلام فاسد ..

1- فإن لازمه أن معنى قوله: { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى } هو معنى قوله: { وأقيموا الصلاة }
ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين !

2- ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب المحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارىء ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته.

3- وقد قال تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ } . وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله. والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: حتى يسمع كلام الله، ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله. والأصل الحقيقة. ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله -: فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

4- ويقال لمن قال إنه معنى واحد -: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه ؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله وفساد هذا ظاهر. وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعض. وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه.

ولما قال تعالى للملائكة: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةَ } ولما قال لهم: { اسْجُدُوا لِآدَمَ }.
وأمثال ذلك -: هل هذا جميع كلامه أو بعضه ؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

5- وأما من قال إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقيل إنما قال: إن البيان لفي الفؤاد وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الإستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت ! أي: شيء من الإله بشيء من الناس ! أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟!

وأيضاً: فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير اليه إشارة.

6- ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس -: قوله : إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. وقال: إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإنما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة. واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته. واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب - لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.
7- وأيضاً: ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أوتعمل به. فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء. فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

8- ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق -: فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ٰأفتراه سبحانه وتعالى يشير الى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع ؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.
وقوله: لا يأتون بمثله - أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا - فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء بمثله وشبهه. وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم ؟!
اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق :

بالجملة فأهل السنة كلهم ,من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف, متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق. ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات, أو أنه حروف واصوات تكلم الله بها بعد أن يكن متكلماً, أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء, وأن نوع الكلام قديم ,والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء ,وأن نوع كلامه قديم, وكذلك كلام الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر, فإنه قال: ‘‘والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب, وفي القلوب محفوظ, وعلى الألسن مقروء, وعلى النبي منزل ولفظنا بالقرآن مخلوق. وسمع موسى عليه السلام كلام الله ,فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل, وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ‘‘فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته يُعلم منه أنه حين جاء كلمه, لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً ,يقول :يا موسى كما يُفهم من قوله تعالى:(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)ففهم الرد على من يقول من أصحابه :إنه معنى أن يسمع قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع, وإنما يخلق الله الصوت في الهواء,.
معنى القرآن لغة واصطلاحاً:

والقرآن في الأصل :مصدر, فتارة يذكر ويراد به القراءة, قال تعالى:(وقرآن الفجر إن قرءان الفجر كان مشهوداً).وقال صلى الله عليه وسلم ‘‘زينوا القرآن بأصواتكم", وتارة يذكر ويراد به المقروء, قال تعالى(فإذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم),

_معنى قوله:(منه بدا):

الطحاوي رحمه الله يقول: كلام الله منه بدا. وكذلك قال غيره من السلف, ويقولون: منه بدا وإليه يعود.

(منه بدا)أي هو المتكلم به فمنه بدا. لا من بعض المخلوقات وإليه يعود: يرفع من الصدور والمصاحف, فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف.
معنى قوله: (بلا كيفية)

وقوله :بلا كيفية, أي: لا تعرف وكيفية تكلمه به قولاً ليس بالمجاز, وأنزله على رسوله وحياً أي :أنزله إليه على لسان الملك, فسمعه الملك جبريل من الله, وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك, وقرأه على الناس .قال تعالى:(وقراءنا فرقنـهُ لتقرأه على الناس على مُكثٍ ونزلنه تنزيلاً)[الاسراء106]

-تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله:

وقوله :ولا يشبه قول البشر, يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى (وما أصدق من الله حديثا) .وقال تعالى:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله).وقال(قل فأتوا بعشر سورٍ مثله). فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة –عن الإتيان بسورة مثله, تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله. وأعجاز نظمه ومعناه, والقرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين؛ أي باللغة العربية, فنفي المشابهة من حيث التكلم ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف.

تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله:
وقوله: ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر. لا شك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً. وأما إذا أقر أنه كلام الله، ثم أول وحرف - فقد وافق قول من قال: إن هذا إلا قول البشر. في بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان
نفي مشابهة كلام الله لكلام البشر :
وقوله : ((ولا يشبه قول البشر)) يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق . قال تعالى :﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾وقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾. وقال تعالى : قل فأتوا بعشر سور مثله .وقال تعالى : ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾. فلما عجزوا - وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة - عن الإتيان بسورة مثله ، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله . وإعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط . هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين ، أي بلغة العربية . فنفي المشابهة من حيث التكلم ، ومن حيث النظم والمعنى ، لا من حيث الكلمات والحروف .
كفر من وصف الله بمعنى من معاني البشر:
قوله:(ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر ,فقد كفر. فمن أبصر هذا واعتبر, وعن مثل قول الكفار انزجر, وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر)

ش: لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة ,منه بدا, نبَه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر, نفياً للتشبيه عقيب الإثبات, يعني أنه تعالى وإن وصف بأنه متكلم, لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون بها الإنسان بها متكلماً,فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

المحاضرة الحادية عشر

الغضب والرضى
وشروط (لا إله إلا الله)

2- الغضب والرضى

قوله والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى
شرح : قال تعالى : رضي الله عنهم . لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . وقال تعالى : من لعنه الله وغضب عليه . وغضب الله عليه ولعنه . وباءوا بغضب من الله . ونظائر ذلك كثيرة . ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب ، والرضى ، والعداوة ، والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات ، التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى . كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات
الرد على من تأول الغضب والرضى :
ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضى الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنه الغضب . ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا ، فهي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه ، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه ، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك .
فإن قال : الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ؟ قيل له : فقل : إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة . فإذا كان ما يقوله

في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات ، لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لأنك تسلم من التناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب . فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله ، إذ العقول مختلفة ، فكل يقول إن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر !
موقف الجهمية من هاتين الصفتين وغيرهما :
وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه ، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحوه ذلك ، وقالوا : إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ، ليس هو في نفسه متصفاً بشيء من ذلك ! !
موقف الكلابية من هذا :
وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه ، فقالوا : لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً ، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته ، قديمة أزلية ، فلا يرضى في وقت دون وقت ، ولا يغضب في وقت دون وقت .
كما قال في حديث الشفاعة : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده .
الرد على الكلابية :
كما قال في حديث الشفاعة : إن [ص: 688] ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا .
فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت ، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط ، كما يحل السخط ثم يرضى ، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانا لا يتعقبه سخط .
وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام ، حين سأله عن الإيمان ، فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، الحديث - فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ، ثم بالكلام على الملائكة ، ثم وثم ، إلى آخره .

3- الخلة

ونقول: ان الله اتخذ إبراهيم خليلاً ،وكلم الله موسى تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً

شرح : قال تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} وقال تعالى : {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}. الخلة : كمال المحبة .
وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم ، في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً .

وأخذ هذا المذهب عن الجعد - الجهم بن صفوان ، فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول : الجهمية . فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك . وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً ، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب ، كما قيل :
قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً
ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائرصفاته . ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي قال : لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله ، يعني نفسه .
وفي رواية : إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . وفي رواية : إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً .
فبين أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً ، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق . مع أنه قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً ، كقوله لمعاذ : والله إني لأحبك . وكذلك قوله للأنصار . وكان زيد بن حارثة حب

رسول الله ، وابنه أسامة حبه . وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص : أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، قال : فمن الرجال ؟ قال :
أبوها . فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها لكمالها يكون محباً لذاته ، لا لشيء آخر.
الخلة التي لا تقبل المشاركة:
ومن كمالها لا تقبل الشركة [ولا] المزاحمة ، لتخللها المحب ، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب . ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا ، فوهب له إسماعيل ، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه ، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره ، فامتحنه به بذبحه ، ليظهر سر الخلة [في تقديمه محبة خليله على محبة ولده ، فلما استسلم لأمر ربه ، وعزم على فعله ، فظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثارا لمحبة خليله على محبته ، نسخ الله ذلك عنه ، وفداه بالذبح العظيم ، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر ، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة ، فنسخ في حقه ، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة .
مشاركة النبي ﷺ لإبراهيم وموسى فيما اختصا به :
وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء .
إنكار الجهمية لصفة الخلة و المحبة :
وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم ، في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيرا .
وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان ، فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية . فقتله سلم بن أحوز أمير [ص: 396] خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك .
وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلا وموسى كليما ، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب ، كما قيل :
4- العرش والكرسي
وقوله : (والعرش والكرسي حق)
أولاً : العرش:
شرح : كما بين تعالى في كتابه ، قال تعالى: ((ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)) [1] ... ((رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)) [2] ... ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) [3] ... ((ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)) [4] في غير ما آية من القرآن: ((لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)) [5] ... ((اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)) [6] ... ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ)) [7] ... ((وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)) [8] ... ((وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)) [9]
، وفي صحيح البخاري عن رسول الله أنه قال : إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . يروى وفوقه بالنصب على الظرفية ، وبالرفع على الابتداء ، أي : وسقفه .
أوهام أهل الكلام في صفة العرش :
وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وربما سموه : الفلك الأطلس ، والفلك التاسع ! وهذا ليس بصحيح ، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال ﷺ: فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور .
والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس : ((وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)). وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب ، فهو : سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف المخلوقات .

وأما من حرف كلام الله ، وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع بقوله تعالى : ((وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)) وقوله: ((وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)). أيقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟! وكان ملكه على الماء ! ويكون موسى عليه السلام آخذاً من قوائم الملك ؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟ !

ثانيا الكرسي :

وأما الكرسي فقال تعالى : ((وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)) . وقد قيل : هو العرش ، والصحيح أنه غيره ، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

روى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش ، والحاكم في مستدركه ، وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ((وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)) [16] ، أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى . وقد روي مرفوعاً ، والصواب أنه موقوف على ابن عباس .

وقال السدي : السماوات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش . وقال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله يقول : ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض . وقيل : كرسيه علمه ، وينسب الى ابن عباس والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة ، كما تقدم .

ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن . والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم ، كما قيل في العرش . وإنما هو- كما قال غير واحد من السلف : بين يدي العرش كالمرقاة إليه

5-فضل شهادة أن لا إله إلا الله :

كلمة لا إله إلا الله هي سبيل السعادة في الدارين فبالتزامها النجاة من النار وبعدم التزامها البقاء في النار ، وبها تثقل الموازين وبدونها تخف الموازين وبها أخذ الله الميثاق ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار ، لذا فقد اجتمعت لهذه الكلمة العظيمة كثير من الفضائل :

1-فهي أعظم نعمة أنعم الله عز وجل بها على عباده أن هداهم إليها ، ولهذا ذكرها في سورة النحل التي هي سورة النعم فقدمها أولاً قبل كل نعمة ، فقال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾.

2-وهي العروة الوثقى : قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصال لها ﴾ . قاله سعيد بن جبير والضحاك .

3-وهي العهد الذي ذكره الله عز وجل إذ يقول : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما : شهادة أن لا إله إلا الله ، والبراءة من الحول والقوة إلا بالله وأن لا يرجو إلا الله عز وجل .

4-وهي الحسنى التي ذكرها تعالى في قوله : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى ﴾ . قاله أبو عبدالرحمن السلمي والضحاك ، ورواه عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما .

5-وهي كلمة الحق التي ذكر الله عز وجل إذ يقول : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ قاله البغوي .

6-وهي كلمة التقوى التي ذكرها تعالى في قوله : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ رواه ابن جرير وعبدالله بن أحمد والترمذي .

7-وهي القول الثابت الذي ذكره تعالى في قوله : ﴿ يثبت الله الاذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقد ثبت ذلك في الصحيحين عن البراء عن النبي ﷺ .

8-وهي الكلمة الطيبة المضروبة مثلاً في قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ . وهو مروي عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فأصلها ثابت في قلب المؤمن وفروعها العمل الصالح في السماء صاعد إلى الله عز وجل ، وكذا قال الضحاك وابن جبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم.

9-وهي سبب النجاة من النار ، كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سمع مؤذناً يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : (خرجت من النار) . وفيه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار) وفي حديث الشفاعة : (أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

10-وهي سبب دخول الجنة ، ففي الصحيح أنه ﷺ قال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة) .

11-وهي أفضل ما ذكر الله به عز وجل كما يقول عليه الصلاة والسلام : (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله).

12-وهي أثقل شيء في الميزان كما في المسند عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعن في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله وفي الترمذي والنسائي والمسند عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول

الهل ﷺ يقول : (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول :لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول: احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء) .

13-ويكفي في فضلها إخبار النبي ﷺ أنها على جميع شعب الإيمان كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) وهذا لفظ مسلم . فمن قال هذه الكلمة عالماً ومتيقناً معناها وعاملاً بمقتضاها على وفق ما علمه منها وتيقنه في القول والعمل – قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح – ومات على ذلك دخل الجنة .

6-شروط (لا إله إلا الله) التي لا ينتفع قائلها إلا باستكمالها :

1-العلم : بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك .

قال الله عز وجل : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾، وقال تعالى : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ أي من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم .

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) .

2-اليقين : المنافي للشك وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً .

قال الله عز وجل : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا ، أي لم يشكّوا ، فأما المرتاب فهو من المنافقين – والعياذ بالله – الذي قال الله تعالى فيهم : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه من حديث طويل أن النبي ﷺ بعثه بنعليه فقال : (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره الجنة ..) فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاك فيها .

3-القبول : - المنافي للرد- لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه .

فالمشركون لم ينفوا ما نفته هذه الكلمة ولم يثبتوا ما أثبتته بل قالوا إنكاراً واستكباراً ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾، وقال تعالى فيهم : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾.

4-الانقياد : - لما دلت عليه هذه الكلمة – المنافي للترك .

قال الله عز وجل : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾، وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾، وقال تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ - أي بلا إله إلا الله - ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ ومعنى يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ينقاد وهو محسن موحد. وتمام الانقياد وغايته ومعناه تقديم محاب الله وإن خالفت الهوى وبغض ما يبغضه الله وإن مال إليه الهوى .

5-الصدق : فيها المنافي للكذب وهو أن يقولها صدقاً من قلبه يواطيء قلبه لسانه.

قال تعالى : ﴿ ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾، وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذباً : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفهسم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾.

وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : 65] ، وهذا تمام الانقياد حين يجتمع الانقياد بالعمل مع الانقياد بالقلب ويكون هوى العبد تبعاً لشرع الله عز وجل .

أما اليقين فمعناه استيقان أنها حق ، وقد يستيقن ذلك ولكن لا يريده ولا يحبه كما ذكر الله عن المشركين ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾، وقد يقولها مع استيقان القلب بها لكن ليس صادقاً في إرادتها ورغبته الذاتية في قولها بل قد يقولها لدافع آخر دون الرغبة في أن يدين بها ويضحي من أجلها ويعمل لها ، فالصدق منافٍ للكذب ، واليقين منافٍ للشك ، وقد يقول رجل كلمة الشهادة برغبته صادقاً في إرادة قولها لكن في قلبه شك منها ، فلزم التنبيه على اكتمال جميع هذه المعاني الدقيقة في القلب .

6-الإخلاص : وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك ، ولا يكون له من وراء الشهادتين غرض آخر غير قصده لربه ، فتارك الإخلاص لم يستكمل شروط لا إله إلا الله ولو كان منقاداً صادقاً مستيقناً .

قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾، وقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾. وفي الصحيح عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل) .

7-المحبة : لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ودلت عليه ، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك . قال الله عز وجل : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾. فأخبر الله عز وجل أن عباده المؤمنين أشد حباً له ، وذلك لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحداً كما فعل مدعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه .البقرة : 165 ، وهذه الآية لها تفسيران ، الأول : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ أي غيره * أي غيره ﴿ أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ أي كالحب الذي ينبغي أن لا يكون إلا لله ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ أي من حب المشركين لآلهتهم ، وذلك أن الحب الذي لا يكون إلا لله درجات.

الثاني : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ أي غيره معه ، فيصير المراد : ومن الناس من يتخذ مع الله ... ﴿ أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ أي يحبون شركاءهم كحبهم لله ﴿ والذين آمنوا أشد = = حباً لله ﴾ أي من حب المشركين له . وذلك لأن حب المؤمنين لم ينقسم بين شريكين فحبهم كله لله وحده .

*علامات محبة العبد لربه .

ومحبة العبد لربه لها علامات تعتبر شروطاً في المحبة لا يتصور وجودها مع عدم [وجود] شرط منها ، وأظهرها :

1-تقديم محابِّ الله وإن خالفت هواه وبغض ما يبغضه ربه وإن مال إليه هواه . قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ... ﴾، وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) ، وفيهما عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) .

-موالاة من والى الله ورسوله ﷺ ، ومعاداة من عادى الله ورسوله ﷺ . قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده .. ﴾، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾. وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ... ﴾، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق .. ﴾، وسبق في حديث (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان) : (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) ، وقال ﷺ : (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من أحب في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، وقد أصبح غالب مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهل شيئاً .

3-إتباع الرسول ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه .

قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾.

قال الحسن البصري وغيره من السلف : ادعى قوم محبة الله عز وجل فابتلاهم الله بهذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا : يا رسول الله ، ومنت يأبى ؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري .

7-بيان أن شهادة أن لا إله إلا الله تتضمن أو لا تتم إلا بشهادة أن محمداً رسول اللهﷺ:

وذلك أنه إذا عُلِم أنه لا تتم محبة الله عز وجل التي هي من شروط الشهادة إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه فلا طريق إلى معرفة ما يحبه تعالى ويرضاه وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ واجتناب ما نهى عنه فصارت محبته مستلزمة لمحبة الرسول ﷺ وتصديقه ومتابعته ، ولهذا قرن محبته بمحبة الرسول ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله عز وجل : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

8-بيان أنه لا تناقض بين أحاديث أن الشهادتين سبب لدخول الجنة ، وأحاديث الوعيد بالنار أو تحريم الجنة على من فعل بعض الذنوب ، ونحو ذلك من أحاديث الوعد والوعيد :

ذكر ابن رجب رحمه الله أن أظهر الأقوال في ذلك أن المراد من الأحاديث الدالة على أن الشهادتين تدخل صاحبهما الجنة وأن (من صلى البردين دخل الجنة) ونحو ذلك أن هذه الأعمال سبب لدخول الجنة ومقتضٍ لذلك ، وكذا أحاديث الوعيد ، التي مضمونها أن من فعل كذا من الأفعال دخل النار أو لم يدخل الجنة ، فالمراد أن ذلك سبب مقتضٍ لدخول النار ، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع ، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه .

وقد ذكرنا فيما مضى بالأدلة أن لا إله إلا الله لها شروط لا تصح إلا بها وإنما ينتفع قائلها باستكمالها ، وقد يذكر الرسول ﷺ مرة هذا الشرط ومرة أخرى يذكر ذلك الشرط ، ومرة يذكر الوعد بالجنة دون الإشارة إلى تلك الشروط فتكون هذه نصوصاً مطلقة لها ما يقيدها في الأحاديث الأخرى ، ولذلك لما تخلفت هذه الشروط عن قول المنافقين : لا إله إلا الله لم تنفعهم هذه الكلمة، وكذلك الأعمال التي وعد عليها الرسول ﷺ بالجنة مقيدة بأشياء منها ترك الشرك وأعمال الكفر ، فقد قال تعالى : ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾، ولذلك لم ينتفع المنافقون بصلاة البردين ، فظهر أن المراد أن هذه الأعمال الممدوحة من الأعمال المؤدية لدخول الجنة مع وجود الشروط وانتفاء الموانع ، وقد قال وهب بن منبه لمن سأله : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان ، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك. وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته : ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة . قال الحسن : نعم العدة لكن للا إله إلا الله شروطاً فإياك وقذف المحصنات . وقيل للحسن : إن ناساً يقولون : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة . فقال : من قال : لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة .

() قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : 145] .

وقد اشترط رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة أعمالاً أخرى غير الشهادتين لدخول الجنة كقوله ﷺ في الصحيحين لمن سأله عن عمل يدخله الجنة : (تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم) والرسول ﷺ لا يتناقض كلامه ، فدل هذا على أن الأحاديث التي وعد فيها بالجنة على عمل واحد من الأعمال أو أكثر فالمراد أن هذه الأعمال أسباب لدخول الجنة : (تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم) والرسول ﷺ لا يتناقض كلامه ، فدل هذا على أن الأحاديث التي وعد فيها بالجنة على عمل واحد من الأعمال أو أكثر فالمراد أن هذه الأعمال أسباب لدخول الجنة مع وجود شروطها وانتفاء موانعها ، فمثل هذه النصوص المطلقة ينبغي أن تقيد بما ذكر من زيادات في أحاديث أخر ، ففي بعض أحاديث الوعد بالجنة على كلمة لا إله إلا الله (من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ..) وفي بعضها (مستيقناً) ، وفي هذا وغيره مما ذكرنا سابقاً إشارة إلى العمل بمقتضيات تلك الشهادة وضرورة تحقق القلب بمعناها ، وذلك أن لا يأله العبد غير الهه حباً ورجاءً وخوفاً وطمعاً وتوكلاً واستعانةً وخضوعاً وإنابةً وطلباً ، وتحققه بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ أن لا يعبد الله بغير ما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ .

فالمراد إذاً من قول : لا إله إلا الله الإتيان بهذه الكلمة بمقتضياتها وإلا كانت عبثاً ، ومن قال هذه الكلمة العظيمة ملتزماً بما تضمنته فلا شك أنه ممن يستحق الوعد بالجنة ، وبيان ذلك أن قول العبد : لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله غيره، والإله هو الذي يطاع هيبةً وإجلالاً ومحبةً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له ، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عز وجل ، ولا شك أن من قال لا إله إلا الله بمعناها هذا عاملاً به يدخل الجنة دون عقاب ، وأما من أخل بشيء من مقتضياتها فإنه ينتقص من توحيده بقدر ما أخل به ، وقد ينتقض توحيده بالكلية كما لو أشرك مع الله غيره في عبادة من العبادات فهذا عقوبته النار خالداً فيها إن لم يتب ، وقد يكون ما أخل به قادحاً في تمام التوحيد فيعذب بقدر ما أخل به قبل أن يدخل الجنة ، وكل ما يأتي به العبد من أمور تخالف مقتضيات كلمة الشهادة فهو قدح في إخلاصه في قول لا إله إلا الله ونقص في توحيده ، ويكون فيه من العبودية لغير الله بحسب ما تلبس به من تلك الأمور المخالفة لمقتضيات الشهادة وهذا كله من فروع الشرك .

وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله ، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها هوى النفس أنها كفر وشرك ، وكذا ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع ، قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال الحسن : هو الذي كلما هَوِيَ شيئاً ركبه ، وكلما اشتهى شيئاً أتاه ، لا يحجزه عن ذلك ورع . ويشهد لهذا الحديث الصحيح : (تعس عبدالدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبدالقطيفة، تعس عبدالخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش) فدل هذا على أن من أحب شيئاً وأطاعه وكان من غاية مقصوده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه ، وكان ذلك –بحسب قدره- إما منافياً بالكلية لشهادة أن لا إله إلا الله ، وإما قادحاً ومنافياً لكمالها وتمامها ، وفي الحالة الأولى لا يستحق صاحب تلك العبادة الباطلة ما جاء في أحاديث الوعد على الشهادتين لأنه لم يحققهما ، وفي الحالة الثانية لا يستحق دخول الجنة دون سابقة عذاب ، ومثله إنما يدخل الجنة بالشهادتين بعدما يطهره الله من ذنوبه في النار إن لم يغفر له .

ويدل على ما ذكرنا أيضاً أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصية الله عبادة للشيطان فقال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾، ولا يكون مخلصاً في قول لا إله إلا الله مخلصاً عبوديته

للرحمن إلا من خلص من عبادة الشيطان وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فهم الذين حققوا قول لا غله إلا الله وأخلصوا في قولهم بفعلهم فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلاً ، وهم الذين صدقوا في قول لا إله إلا الله ، وهم عباد الله حقاً ، فأما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب قوله فعله ونقص من كمال توحيده بقدر معصيته لله ، ومما يشهد لذلك أيضاً أن من أخل بشيء من حقوق لا إله إلا الله في الدنيا لا ترتفع عنه العقوبة لمجرد تلفظه بالشهادتين ، فكذا عقوبة الآخرة ، وبيان ذلك أن النبي ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – ﷺ -، ففهم عمر وجماعة من الصحابة – رضي الله عنهم جميعاً – أن من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك ، فتوقفوا في قتال مانعي الزكاة ، وفهم الصديق رضي الله عنه ، أنه لا يمتنع قتاله إلا بأداء حقوقها لقوله ﷺ في نفس الحديث السابق : (فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) ولذا رأى قتال مانعي الزكاة ، وهذا الذي فهمه الصديق ثبت عن رسول الله - ﷺ - قال ؛ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - ﷺ - ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ..) .

ودل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فإن تابوا وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾، فمن مقتضيات الشهادتين ومن حقوق التوحيد أداء الفرائض ، ولما قرر أبو بكر رضي الله عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوا صواباً ، فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدى الشهادتين مطلقاً بل يعاقب إذا أخل بحق من حقوق الإسلام فكذلك عقوبة الآخرة ، فالذي شرع عقوبة الدنيا هو الذي سيعاقب في الآخرة سبحانه وتعالى .

وختاماً لهذا الموضوع نحب أن نثبت بالإضافة إلى ما سبق بقة الأقوال في أحاديث الوعد والوعيد ، وملخص الأقوال في هذا الأمر أن أحاديث الوعد إما أن تكون وعداً بالجنة أو تحريماً على النار ، وكذلك أحاديث الوعيد إما أن تكون وعيداً بالنار أو تحريماً على الجنة وفيما يلي بيان كل من هذه الأقسام بما يحصل به الجمع بين الأحاديث :

أولاً : أحاديث الوعد : (أي الوعد بالجنة لمن أتى بالشهادتين أو فعل بعض الطاعات ، أو تحريم النار عليه) .

أ-أحاديث الوعد بالجنة :

-وهذه تحمل على أن المراد أن يدخلها إذا فعل الأمر الممدوح المذكور في الحديث بعد أن يطهر من ذنوبه في النار .

ب-أحاديث التحريم على النار :

-وهذه تحمل على أن المراد تحريمه عليها بعد خروجه منها بعد تطهيره من الذنوب الأخرى أو بالشفاعة ثم اغتساله في نهر الحياة ودخوله الجنة فحينئذ يحرم على النار فلا تمسه أبداً .

-أو أن المراد تحريمه على النار التي أعدت للكافرين التي لا يخرج منها من دخلها وهي ماعدا الطبقة العليا من النار التي يدخلها عصاة الموحدين ممن شاء الله عقابه وتطهيره بها على قدر ذنبه .

وأجاب بعض العلماء عن أحاديث الوعد عامة بأجوبة أخرى غير هذه منها أن هذه الأحاديث كانت قبل نزول الفرائض واستكمال الدين في حق من مات قبل هذه الفرائض فجعلها البعض منسوخة بالأحاديث الأخرى وجعلها البعض محكمة لكن ضمت إليها شرائط ، وهذا راجع إلى الخلاف المشهور بين الأصوليين هل زيادة النص نسخ أم لا ، وقد يزول الخلاف إذا التفتنا إلى أن بعض المتقدمين كانوا يسمون الإيضاح والبيان نسخاً. وهذا بعيد لصدور بعض أحاديث الوعد في وقت متأخر من حياته ﷺ .

ثانياً : أحاديث الوعيد : (أي الوعيد بالنار أو تحريم الجنة على من فعل بعض الذنوب):

أ-أحاديث الوعيد بالنار :

-إما أن يقال إن المراد أن العبد يعذب فيها بقدر ذنبه ثم يدخل الجنة .

-أو يقال أن المقصود بالوعيد من استحل الذنب أو المعصية فهو مستحل للخلود في النار بكفره إن لم يتب ، وكذا كل من كان فعله كفراً مخرجاً من الملة.

ب-أحاديث التحريم على الجنة :

-وهذه يجاب عنها بأنها جنات كثيرة كما أخبر النبي ﷺ فيكون فاعل هذا الذنب لا يدخل الجنة التي أعدت لمن لم يرتكبه ، فأهل الجنة متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم .

-كما يجب أن يجاب بأن أهل الجنة متفاوتون في السبق في دخولها فيكون فاعل هذا الذنب لا يدخل الجنة في الوقت الذي يدخل فيه من لم يرتكب هذا الذنب .

-أو يكون تحريمها على من استحل ذلك الذنب .

ومع كل ما سبق فإن الوعد المذكور في الأحاديث لا يلزم إلا بموت الموعود على ذلك العمل الصالح ، وكذلك الوعيد لا يلحق صاحبه إذا تاب قبل موته. ونذكر مرة أخرى بالقول الجامع في ذلك الذي بدأنا به هذا الموضوع وهو أن ما في هذه الأحاديث من وعد أو وعيد فإنه مقيد باستجماع شروطه وانتفاء موانعه والله تعالى أعلم .

المحاضرة الثانية عشر
تعريف العبادة، وشروطها

9-تعريف العبادة، وشروطها ، وبيان أنواعها وأن من صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك :

أ-تعريف العبادة :

-العبد إن أريد به المعبد أي المذلل المسخر دخل فيه جميع المخلوقات ، فالكل مخلوق لله عز وجل مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ، ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهي إليه ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ كل يجري لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة ﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً / إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ﴾ ، فذلك تقدير العليم وتدبير العدل الحكيم .

-وإن أريد به العابد خص ذلك بالمؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾.

-وأما العبادة فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف ونصر المظلوم وتعليم الناس الخير والدعوة إلى الله عز وجل والمباحات مع تحسين النية فيها ومتابعة السنة ، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وخشية الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والرغبة إليه والاستعانة به والحب والبغض في الله والموالاة والمعاداة فيه وغير ذلك .

هذا من حيث أفراد العبادة وأنواعها أما من حيث مناطها الذي تدور حوله ولا تصح إلا به فهي كمال الحب ونهايته وكمال الذل له تعالى ونهايته ، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر ، ولذا قال من قال من السلف : من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد .

وبيان ذلك أن دعوى الحب لله بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء ولا خشية ولا رهبة ولا خضوع دعوى كاذبة ، ولذا نرى من يدعي ذلك كثيراً ما يقع في معاصي الله عز وجل ويرتكبها ولا يبالي ويحتج بالإرادة الكونية وأنه مطيع لها وهذا شأن المشركين الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ وإمامهم في ذلك إبليس إذ قال : ﴿ رب بما أغويتني ﴾، وإنما المحبة نفس وفاق العبد ربه فيحب ما يحبه ويرضاه ويبغض ما يكرهه ويأباه ، وإنما تتلقى معرفة محاب الله ومعاصيه من طريق الشرع وإنما تحصل بمتابعة الشارع ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فمن ادعى محبة الله ولم يكن متبعاً رسوله ﷺ فهو كاذب ، وقال الشافعي رحمه الله : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ .

وكذلك الرجاء وحده إذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله وأمن مكر الله ، وقد قال تعالى : ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بربه وقنط من رحمته ويئس من روحه وقد قال الله تعالى : ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾، وقال : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾.

فالأمن من مكر الله خسران ، واليأس من روحه كفران ، والقنوط من رحمة الله ضلال وطغيان ، وعبادة الله عز وجل بالحب والخوف والرجاء توحيد وإيمان ، فالعبد المؤمن بين الخوف والرجاء ، كما قال تعالى : ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾، وقال تعالى : ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه﴾ وبين الرغبة والرهبة ، كما قال تعالى في آل زكريا : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾

فتارة يمده الرجاء والرغبة ، فيكاد أن يطير شوقاً إلى الله ، وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى ، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه خائف من عقوباته ملتجئ منه إليه ، عائذ به.

قد يكون الحب والخوف حباً فطرياً وخوفاً فطرياً لا عبادة فيهما ، فالمحبة التي ليست معها خوف ولا تذلل كمحبة المطعم والمشرب والأهل والمال والولد وغير ذلك ليست بعبادة ولكن إذا اقتضى ذلك تقديم مرادات المحبوب ومطالبه على مرادات الله كان في ذلك عبودية لها تنقص في توحيد العبد بقدرها كما قال تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ ، فهو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه مهما خالف مراد الله ، وكذا قوله ﷺ في الصحيح : (تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ...) وهو من استرق المال قلبه وأصبح رضاه وسخطه من أجله ، وكذلك الخوف بدون محبة كالخوف الفطري من الوحوش والحريق والعدو والغرق وغير ذلك فليس بعبادة لكن إذا وصل الأمر إلى حد الخشية بالغيب والنكوص عن الدين بسبب ذلك الخوف فذلك خوف كفري لا فطري . كما قال تعالى عن الذين نكصوا عن الدين وشر حوا بالكفر صدراً : ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة = =الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ، فخوفهم على دنياهم وحبهم لها ليس خوفاً طبيعياً ولا حباً طبيعياً بل كان خوفاً كفرياً وحباً كفرياً . والله تعالى أعلم .

ب-أركان العبادة وشروطها :

للعبادة ثلاثة أركان أو شروط :

الأول : صدق العزيمة . الثاني : الإخلاص . الثالث : متابعة الرسول ﷺ .

فالأول شرط في صدور العبادة ووقوعها ، والآخران شرطان في قبولها .

1-صدق العزيمة : وهو أن يبذل العبد جهده في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه والاستعداد للقاء الله وترك العجز وترك التكاسل عن طاعة الله وإمساك النفس بلجام التقوى عن محارم الله وطرد الشيطان عنه بالمداومة عن ذكر الله والاستقامة على ذلك كله ما استطاع ، قال تعالى : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، وقال تعالى : ﴿ألم* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون*ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل ولو أني فعلت [كان] كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان) . العنكبوت : 1-3 .

2-الإخلاص : وحقيقته أن يكون قصد العبد وجه الله عز وجل والدار الآخرة كما قال تعالى : ﴿وسيجنبها الأتقى* الذي يؤتي ماله يتزكى *وما لأحد عنده من نعمة تجزى* إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى*ولسوف يرضى﴾، وقال تعالى : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً *ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾، وقال تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون*أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾، وقال تعالى : ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين﴾.

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) ، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) متفق عليه .وكذا قوله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ [النساء : 114]

3-المتابعة : أي متابعة الرسول ﷺ ، وهو شرط لازم لقبول العبادة من العبد ، فيعبد الله تعالى وفق ما شرع وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، كما قال تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، وفي رواية لمسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) فهذه الأركان الثلاثة شروط في العبادة لا قوام لها إلا بها فالعزيمة الصادقة شرط في صدورها ، والنية الخالصة وموافقة السنة شرطان في قبولها ، فلا تكون عبادة مقبولة إلا باجتماعها ، فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمنٍ على الله وتسويف في العمل وتفريط فيه ، وصدق العزيمة بدون إخلاص يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص ، وإخلاص النية إن لم يكن العمل وفق السنة كان بدعاً وحدثاً في الدين وشرع ما لم يكن العمل على وفق السنة كان بدعاً وحدثاً في الدين وشرع ما لم يأذن به الله فيكون رداً على صاحبه ووبالاً عليه والعياذ بالله ، فلا يصدر العمل من العبد إلا بصدق العزيمة ولا يقبل منه ذلك إلا بإخلاص النية وإتباع السنة ، ولذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، يعني خالصاً من شوائب الشرك موافقاً للسنة .

جـ - بعض أنواع العبادة :

1-الدعاء : وهو أعظمها ولبها ، قال الله عز وجل : ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، وقال ﷺ : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وله عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : (إذا سألت فسأل الله)، وله أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إنه من لم يسأل الله يغضب عليه).

2-الخوف : قال تعالى : ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾، وقال سبحانه : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقال تبارك وتعالى : ﴿والذي يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾، وقال عز وجل : ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾، وقال تعالى : ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾.

وقال النبي ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات يجأرونإلى الله) رواه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه وحسنه ورواه عنه أيضاً ابن ماجه وأحمد، وفي البخاري عن أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (والله لا أدري –وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل بي ولا بكم) ، وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها)، وفيه عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة)، وله وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم)، وفيه من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله قد شبت ، قال : (شيبتني هود وأخواتها).

3-التوكل : وهو اعتماد القلب على الله تعالى وثقته به وأنه كافية .

قال تعالى : ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ فجعله الله تعالى شرطاً في الإيمان ، كما وصف المؤمنين أنهم أهله إذ قال تعالى : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، وقال موسى عليه السلام لقومه : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقال تعالى عن رسله إذ قالوا لقومهم . ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون *وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾، وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام : ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .. ﴾ وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام : ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة .. ﴾ وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام : ﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾

وقال تعالى : ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾، وقال تعالى : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾

وقال تعالى في مدح عباده المؤمنين : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾، وقال تعالى فيهم : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين ﴿ قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، وفي الصحيح عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)

، وروى الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)، وفي حديث القدر : (فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

4-الرجاء : قال تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ، وفي الحديث القدسي : (أنا عند ظن عبدي بي) ، وفي دعاء المكروب : (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي ولا أحد من خلقك طرفة عين) ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن النار).

المحاضرة الثالثة عشر
الجزء الثاني من العبادة

الجزء الثاني من أركان العبادة

5-الرغبة والرهبة والخشوع : أما الرغبة فيما عند الله من الثواب فهي راجعة إلى معنى الرجاء ، والرهبة مما عند الله من العقاب وهي راجعة إلى معنى الخوف ، والخشوع هو التذلل لله عز وجل .

قال تعالى في آل زكريا عليهم السلام : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ ، وقال تعالى : ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ وقال تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين*الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ وقال تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون *الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ ، وفي الصحيح من حديث دعاء النبي ﷺ في الركوع والسجود (خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي) .

6-الخشية : وهي مرادفة للخوف ، وقيل يغلب في الخشية اقترانها بالمحبة ، قال تعالى : ﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾ ، وقال تعالى في مدح عباده المؤمنين : ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ وقال تعالى : ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ وقال تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ ، وقال تعالى : ﴿هذا ما توعدون لكل أوّب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ ، وقال تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ ، وللترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبداً) ، وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تراق في سبيل الله ، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر فريضة من فرائض الله تعالى) . رواه الترمذي وقال حديث حسن .

، قال ابن العربي : الأثر ما يبقى بعده من عمل يجري عليه أجره من بعده ومنه قوله تعالى : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ وقال غيره : ما يبقى من رسوم الشيء ، وحقيقته ما يدل على وجود الشيء ، والمراد خطوة الماشي وخطوة الساعي في فريضة من فرائض الله أو ما بقي على المجاهد من أثر الجراحات وعلى الساعي المتعب نفسه في أداء الفرائض والقيام بها والكد فيها كاحتراق الجبهة من حر الرمضاء التي يسجد عليها وانفطار الأقدام من برد ماء الوضوء ونحو ذلك ..

7-الإنابة : وهي التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى .

قال الله عز وجل : ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا﴾ ، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام والذين معه : ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ ، وقال تعالى في شأن عباده المؤمنين : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ... ﴾ ، وقال تعالى عن عبده داود عليه السلام : ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾ .

8-الخضوع والاستعاذة : أما الخضوع فهو بمعنى الخشوع والتذلل ، وأما الاستعاذة فهي الامتناع بالله عز وجل والالتجاء إليه ، قال الله عز وجل : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ ، وقال تعالى : ﴿إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ ، وقال تعالى : ﴿قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق ... ﴾ إلى آخر السورة ، وقال تعالى : ﴿قل أعوذ برب الناس ... ﴾ إلى آخر السورة ، وقال عن كليمه موسى عليه السلام : ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ .

وقال النبي ﷺ : (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم) ، وقال ﷺ : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) ، وقال ﷺ : (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك و بك منك) وتعوَّذ عليه الصلاة والسلام من الفتن –وأمر بذلك –كفتنة القبر وعذابه وفتنة المسيح الدجال وغير ذلك .

الاستعانة : وهي طلب العون من الله عز وجل . قال تعالى : * . قال تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك ، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه ، ونبر من الحول والقوة إلا بك ، فلا حول لأحد عن معصيتك ، ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك . وقال عن نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ . وللترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (... احرص على ما ينفعك واستعن بالله ...)، وفي الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)

10-الاستغاثة : وهي طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر ، قال الله عز وجل : ﴿إذ تستغيثوا ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ ، وقال تعالى : ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله﴾ ، ومن دعاء النبي ﷺ : (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث) ، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الاستسقاء : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : (اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا) .

11-الذبح : وهو الذبح نسكاً لله تعالى وتقرباً من هدي وأضحية وعقيقة وغير ذلك ، قال الله عز وجل : ﴿فصل لربك وانحر﴾ ، وقال تعالى : ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين *لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ ، وقال تعالى ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها﴾ .

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه مرفوعاً : (لعن الله من ذبح لغير الله) .

12-النذر : قال تعالى : ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذرهم .. ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ ، وقال : ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه .. ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) رواه الجماعة إلا مسلماً .

وروى البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران : لا أدري ذكر أو اثنين أو ثلاثاً بعد قرنه (ثم يجئ قوم ينذرون ولا يوفون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السمن) .

شروط النذر لله تعالى :

1-أن يكون طاعة ، للحديث السابق .

2-أن يكون مما يطيقه العبد ، لما في الصحيحين عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله فأمرتني أن أستفتي لها رسول الله ﷺ فاستفتيه فقال : (لتمشي ولتركب) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي ﷺ (مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه) فأمره النبي ﷺ بترك ما لم يكن مطيقه ولم يكن مشروعاً وأمره بإتمام الصوم لكونه يطيقه ولكنه مشروعاً .

3-أن يكون فيما يملك ، لقوله ﷺ : (لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم).

4-أن لا يكون في موضع كان يعبد فيه غير الله تعالى ، لئلا يكون ذريعة لعبادة غير الله تعالى لحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة ، فقال : (أكان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟) فقالوا : لا ، قال : (فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟) قالوا لا ، قال : (أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم) .

5-عدم اعتقاد الناذر تأثير النذر في حصوله –لمن كان معلقاً نذره بحصول شيء معين –لما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل) .

كانت تلك بعض أنواع العبادة ، وهناك كثير غيرها من العبادات الظاهرة والباطنة كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن وتدبره وتعلمه وتعليمه ، وسائر الأذكار المشروعة ، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين والحب في الله والبغض فيه والموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من العبادات .

د-حكم صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله تعالى :

صرف شيء من العبادة قل أو كثر لغير الله كائناً من كان من ملك أو نبي أو ولي أو قبر أو جني أو شجر أو حجر أو غيره كل ذلك شرك أكبر وسيأتي بيانه إنشاء الله تعالى، وبيان الشرك الأصغر كذلك فيما تبقى من هذا الجزء من الكتاب .

وكذا المباحات مع تحسين النية والمتابعة للرسول ﷺ ، كالطعام والشراب مع نية إعطاء البدن حقه طاعة للرسول ﷺ ، والتقوى على العبادة ، مع المتابعة للرسول ﷺ من التسمية والأكل باليمين وعدم الإسراف وغير ذلك .

والشرك هو أعظم ظلم وأعظم ذنب ، قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ، وذلك لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، لا أعظم ظلماً من شكاية العبد ربه الذي هو أرحم الراحمين فيما أصابه من ضر أو فاته من خير إلا من لا يرحمه ولا يسمعه ولا يبصره ولا يعلمه ولا يملك لنفسه ولا لداعيه من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور ، ولا يغني عنه مثقال ذرة ، عدوله عمّن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، ويفزع في قضاء حوائجه إلى من لا قدرة له على شيء ألبته ، وصرفه عبادة خالقه –الذي خلقه لعبادته وتوحيده ورباه بنعمه الظاهرة والباطنة وحفظه وكلأه بالليل والنهار وحماه من جميع المخاوف والأخطار –لمخلوق مثله خلقه الله تعالى بما شاء من أنواع التصرف ، لا يبدي حراكاً ولا ينفك من قبضة الله عز وجل بل هو خلقه معبوداً ، وهذا رسول الله ﷺ يأمره ربه جلا وعلا فيقول له : ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً *قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ .

وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم: قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك).

المحاضرة الرابعة عشر
الشرك وأنواعه

الشرك وأنواعه

ضد التوحيد وهو الشرك

وكونه ينقسم إلى أكبر وأصغر وبيان كل منهما

1-تعريف (ضد التوحيد وهو الشرك) :

أ-ضد توحيد الربوبية : هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

ب-ضد توحيد الأسماء والصفات (الإلحاد) : وسبق أنه ثلاث أنواع

1- نفي الأسماء والصفات عن الله تعالى وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله ، وهو إلحاد النفاة .

2-تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه ، وهو إلحاد المشبه .

3-تنزيل المخلوق بمنزلة الخالق وهو إلحاد المشركين الذين سموا أصنامهم آلهة واشتقوا أسماء لها من أسماء الله عز وجل .

جـ-ضد توحيد الألوهية :

وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل وهو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأقوامهم .

2-بدء ظهور الشرك في بني آدم :

كان ذلك في قوم نوح وذلك أن الشيطان منذ أن خلق الله آدم وأمر إبليس بالسجود له فأبى وأهبطه الله إلى الأرض وهو قد أضمر العداوة لآدم وذريته بدءاً بتحريضهم على الأكل من الشجرة ومخالفة أمر الله ثم في تحريشه بين أبناء آدم الذين كانوا أمة واحدة حتى ألقى بينهم الخلاف ، كل ذلك تنفيذاً لمقالته إذ ذاك ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين *إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ، ثم كان شر عمل عمله إيقاعه لهم في الشرك ، وبيان ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنوسي العلم عبدت . أهـ فلو جاءهم اللعين وأمرهم من أول مرة بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوا ، بل أمر الأولين بنصب الصور لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم ، ثم تكون عبادة الله عندها ذريعة لعبادتها ممن يخالفهم .

3-أول من دعا العرب إلى عبادة الأصنام في الجزيرة العربية :

هو عمرو بن لحي ، وبيان ذلك ما ذكره الكلبي حيث قال : وكان عمر ابن لُحَيّ كاهناً وله رئي من الجن فقال له : عجل السير والظغن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، ائت جدة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تُجَب . فأتى نهر جدة فاستشارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عدن بن زيد اللات فدفع إليه وداً فحمله . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أريت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان من أول من سيب السوائب) وفي لفظ : (وغير دين إبراهيم) .

ومن وقتها انتشرت عبادة الأصنام بين العرب . قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد رجل منهم سفراً تمسح به فيكون آخر عهده وأول عهده ، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ويطاف بها كما يطاف بالكعبة وينحر عندها كما ينحر عند الكعبة ، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاثة أثافي لقدره فإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك .

4-أسباب تلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام :

1-طائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام .

2-وطائفة أخرى اتخذت القمر صنماً وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة ، وإليه تدبير هذا العلم السفلي .

3-الغلو في المخلوق واعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظاً من الإلهية وشبهوه بالله تعالى .

5- بيان فتح الشرك ووعيد فاعله وأنه أعظم ذنب عصي الله به :

قال تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ ، وقال رسول الله ﷺ : (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار) ..

6-انقسام الشرك إلى أكبر وأصغر وبيان كل منهما :

أ-الشرك الأكبر :

-معنى الشرك الأكبر وبيان شرك المشركين الذين أرسل إليهم محمد ﷺ :

هو اتخاذ العبد غير الله من نبي أو ولي أو جماد أو حيوان نداً مساوياً لله يحبه كحبه ويخافه ويخشاه كخشيته ...إلخ .

وفي آيات الكتاب العزيز – كقوله تعالى على سبيل المثال : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ... ﴾ – ما يدل أن المشركين لم يسووا أندادهم بالله في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة ، ولكن سووهم به في الحب والخشية ، ولم يفردوا الله بالعبادة دون من سواه مع إنهم لم يعبدوا الأصنام استقلالاً بل زعموا أنها تقربهم إلى الله فجمعوا بين شركين :

عبادتهم إياهم من دون الله ، وجعلهم شفعاء بدون إذنه تعالى .
كذلك كان شركهم في الرخاء دون الشدة كما قال تعالى : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ .
هذا التقسيم يذكره العلماء دائماً فيما يتعلق بالشرك في الألوهية أو العبادة .
-بيان ما زاده مشركوا زماننا على شرك الأولين :
1-الشرك في الشدة والرخاء ، بل في الشدة أضعاف الرخاء بما يزيدونه من عدد الذبائح للوليّ في الشدة ونحو ذلك .
2-اعتقادهم متصرفين مع الله فيما لا يقدر عليه إلا هو وإعطاؤهم وإعطاؤهم لمعبوداتهم كثيراً من صفات الربوبية حتى يزعم بعضهم أن الكون لا تتحرك فيه ذرة إلا بإذن فلان . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .
-أقسام المعبودين من دون الله وعاقبتهم :
المعبود من دون الله إما أن يكون عاقلاً أو غير عاقل ، والأول إما أن يكون راضياً بأن يعبد وإما أن لا يكون راضياً ، فأما غير العاقل والعاقل الراضي بالعبادة فهؤلاء حصب جهنم ، قال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ، وأما العاقل الذي لم يرض بالعبادة فهو بريء ممن عبده يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ وغير ذلك من الآيات في عيسى عليه السلام وغيره .
ب-الشرك الأصغر :
وهذا النوع لا يخرج من الملة . ومن أمثلته:
1-الرياء : وهذا الرياء هو شرك أصغر يختلف عن الرياء المذكور عن المنافقين في القرآن الذي هو شرك أكبر ، والفارق في ذلك النية ، فإذا كان الباعث على العمل هو إرادة غير الله عز وجل فذلك النفاق الأكبر ، وإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله عز وجل والدار الآخرة ، ولكن دخل الرياء في تزيينه وتحسينه فذلك هو الشرك الأصغر المفسر بالرياء العملي (يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه) ، وهذا لا يخرج من الملة ولكنه ينقص من العمل بقدره ، وقد يغلب على العمل فيحبطه كله والعياذ بالله . والمراد أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه كما ثبت ذلك عنه ﷺ في الصحيح . وقال رسول الله ﷺ : (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) .
وقد سبق الإشارة إلى معناه أو تعريفه وهو كل قول أو عمل يؤدي إلى صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله عز وجل .
كذا قال صاحب كتاب معارج القبول رحمه الله ، وسماه في مختصر منهاج القاصدين : الرياء المحض ، وكذا في جامع العلوم والحكم وقال : إنه لا يكاد يصدر من مؤمن في الصلاة والصوم ، وقد يصدر منه في حج أو نحوه ، وحينئذ فالعمل حابط ولا شك والعقوبة شديدة .
وبيان ذلك أن الرياء إذا شارك العمل من بدايته فهو حابط ولا شك ، وإن طرأ عليه أثناء عمله : فإن كان خاطراً فدفعه لم يضره ، وإن استرسل معه فإن كان العمل مما لا يتصل أوله بآخره كتعليم العلم وقراءة القرآن وجب قطع العمل وتجديد النية ، وإلا حبط ما استرسل فيه ، وإن كان مما يتصل أوله بآخره كالصلاة وحضور القتال فقال قوم : يحبط ، وقال آخرون : لا يحبط ، ولعله – والله أعلم – لا يحبط ولكن ينقص من ثوابه بقدره . وهذا كله في حالة ما إذا قصد الرياء قصداً خفيفاً ، وكان غالب قصده وجه الله ، أما إذا تساوى قصد الثواب وقصد الرياء أو غلب الأخير فالعمل حابط وصاحبه معرض للعقوبة .
2-الحلف بغير الله : ففي الصحيح أنه ﷺ قال : (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) ، وفي الحديث : (من حلف بغير الله فقد أشرك) . وبيان ذلك أن الرياء إذا شارك العمل من بدايته فهو حابط ولا شك ، وإن طرأ عليه أثناء عمله : فإن كان خاطراً فدفعه لم يضره ، وإن استرسل معه فإن كان العمل مما لا يتصل أوله بآخره كتعليم العلم وقراءة القرآن وجب قطع العمل وتجديد النية ، وإلا حبط ما استرسل فيه ، وإن كان مما يتصل أوله بآخره كالصلاة وحضور القتال فقال قوم : يحبط ، وقال آخرون : لا يحبط ، ولعله – والله أعلم – لا يحبط ولكن ينقص من ثوابه بقدره.
وهذا كله في حالة ما إذا قصد الرياء قصداً خفيفاً ، وكان غالب قصده وجه الله ، أما إذا تساوى قصد الثواب وقصد الرياء أو غلب الأخير فالعمل حابط وصاحبه معرض للعقوبة .
وكفارة الحلف بغير الله كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (من حلف فقال في حلفه : باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله) ، والحديث واضح في أن الحلف بغيره تعالى من الشرك ، لذا فكفارته قول لا إله إلا الله.
ومثل الحلف بغير الله قول : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان . لكن الصواب أن يقال : ما شاء الله ثم شئت ، فالفرق بين الواو وثم أنه إذا عطف بالواو كان مضاهياً مشيئة الله بمشيئة العبد إذ قرن بينهما ، وإذا عطف بثم فقد جعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله كما قال تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾

7-أمثلة لبعض أمور شركية يفعلها العامة ، وفيه حكم الرقى والتمائم :
هذه الأمور غالبها من الشرك الأصغر لكن إذا اعتمد العبد عليها بحيث يثق بها ويضيف إليها النفع والضر كان ذلك شركاً أكبر والعياذ بالله ، لأنه حينئذ يصير متوكلاً على سوى الله عز وجل ملتجئاً إلى غيره . وفيما يلي ذكر أمثلة لهذه الأمور :
أ-التعاليق : قال ﷺ : (من علق تميمة فقد أشرك)، وفي الصحيح أن الرسول ﷺ في بعض أسفاره أرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت.
ومن التعاليق :
1-الودعة : وهي شيء أبيض يجلب من البحر يعلق في حلوق الصبيان وغيرهم لرد العين .
2-الناب : وهو ناب الضبع يؤخذ ويعلق من العين .
3-الحلقة : يلبسونها من العين والواهنة (مرض العضد) .
4-أعين الذئاب : يعلقونها إذا مات الذئب على الصبيان ونحوهم زعماً أن الجن تفر منها .
5-الخيط : كثيراً ما يعلقونه على المحموم ويعقدون فيه عقداً بحسب اصطلاحاتهم ويربطونه بيد المحموم أو عنقه طلباً للشفاء .
6-العضو من النسور : كالعظم ونحوه ويجعلونه خرزاً ويعلقونها على الصبيان يزعمون أنها تدفع العين .
7-الوتر : كانوا في الجاهلية إذا عتق وتر القوس أخذوه وعلقوه على الصبيان والدواب لدفع العين .
8-التمائم : وهي شيء يعلقونه على الأولاد لدفع العين وحكمها كحكم التعاليق سواء كانت كتابة أو غير كتابة إلا إذا كانت كتابة من خالص الوحيين فبعض السلف أجازها والبعض كرهها ومنعها والأحوط البعد عن ذلك .
ب-الرقى :
قال رسول الله ﷺ : (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) والتولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته وحملت الرقى المذكورة في الحديث على الرقى الممنوعة .
وفي السنة ما يدل على جواز بعض الرقى بشروط ثلاثة :
1-أن تكون من الكتاب والسنة ، لقوله ﷺ في صحيح مسلم لما قال له آل عمرو بن حزم : يا رسول الله إنها كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى فقال : (ما أرى بأساً ، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل) وفيه : (لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) ، وكان ﷺ إذا زار مريضاً رقاه ، وفي ذلك أذكار كثيرة في صحيح البخاري وغيره مثل : (اللهم رب الناس مذهب الباس اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً) ، وفي صحيح مسلم : رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة .
والحمة تطلق على لدغ ذوات السموم كالحية والعقرب ونحوها ، والنملة قروح تخرج في الجنب .
2-أن تكون باللغة العربية ، محفوظة ألفاظها ، مفهومة معانيها ، فلا يجوز تغييرها إلى لسان آخر فإن في ذلك فرصة للشياطين في إيقاع الناس في الشرك والكفر وهم يقولون ما لا يدرون معناه .
3-أن يعتقد أنها سبب من الأسباب لا تأثير لها إلا بإذن الله ، فلا يعتقد فيها نفعاً بذاتها.
جـ-التبرك بالأشجار والأحجار والبقاع والقبور وما يحصل عندها من الشركيات والبدع ، وفيه أقسام الزيارة :
ويدخل في ذلك عدة أمور منها :
1-الاستشفاء بتربة القبور : ويقع ذلك من الجاهلين على أنواع مثل أخذها ومسح الجلد بها ، أو التمرغ على القبور أو الاغتسال بها مع الماء أو شرها .. الخ ، وهذا كله ناشيء من اعتقادهم في صاحب القبر أنه ينفع ويضر حتى عدوا ذلك إلى تربته التي دفن فيها وبعضهم يعديه إلى التربة التي وضعت عليه جنازته
2-التبرك بالأشجار والأحجار والبقاع والقبور واتخاذها أعياداً : وقد نهى رسول الله ﷺ عن كل هذه الأعمال الشركية وما يوصل إليها فمن ذلك قوله ﷺ : (لا تجعلوا قبري عيداً)، وقوله ﷺ : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، رواه مالك في الموطأ . وقال ﷺ : (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها)، ولما قال له الصحابة رضوان الله عليهم : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط – أي كما للمشركين ذات أنواط أي شجرة يعكفون عندها ويضعون عليها أسلحتهم – قال : (الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم).
أما استلام الحجر الأسود ونحوه فذلك تعظيم لأمر الله لا للحجر ، وأما تعظيم الرسول ﷺ وما أمر بتعظيمه فذلك من التعظيم المشروع إذا تم وفق الشرع ، وهو راجع إلى تعظيم الله تعالى وأمره .
3-تعلية القبور والبناء عليها وإيقادها : وهذا مع ما فيه من الذريعة للشرك ففيه تشبه باليهود والنصارى الذين شيدوا المساجد على القبور ، وقد حذر المصطفى ﷺ من ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه) قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : (فمن) ؟ أخرجاه ، وفي

الصحيح أيضاً قال ﷺ : (قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). ولمسلم عن جابر رضي الله عنه : نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه .
وقال رسول الله ﷺ : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتي تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود ، ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : (ألاّ تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) .
ويروى أنه ﷺ لعن المتخذين على القبور المساجد والسرج . ولَعْنُ متخذي المساجد على القبور تشهد له الأحاديث الصحيحة ، وأما لعن متخذي السرج فلم يصح فيه شيء ولكن يؤخذ النهي من عمومات الشريعة كقوله ﷺ : (كل بدعة ضلالة) ونهيه عن إضاعة المال والتشبه بالكفار وغير ذلك.
*زيارة المقابر وأقسامها : وتنقسم الزيارة إلى ثلاثة أقسام :
1-زيارة شرعية : وهي زيارة القبور لتذكر الآخرة والدعاء لأموات المسلمين ولنفسه كما علمنا الرسول ﷺ أن نقول ، دون شدٍ للرحال أو فعل أو قول من أفعال وأقوال الشرك ، وألاّ تقع من النساء.
وأدلة هذه الزيارة ما يلي :
-قوله ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تُرِقُّ القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة ، ولا تقولوا هجراً) أي : محظوراً شرعاً .
-كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية) ، -وقال عليه الصلاة والسلام : (لا يشد الرحال إلاّ إلى ثلاث مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى) والحديث في الصحيحين.
-وثبت عنه ﷺ أنه لعن زوارات القبور.
2-زيارة بدعية : وهي ما صاحبها الاعتكاف عند القبر أو شد الرحال أو الصلاة أو التوسل بأهلها .
قال ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وقال : (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة).
وأما حديث الأعمى الذي فيه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني . قال : (إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك) قال : فادعه . قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، إني توجهت بك على ربي في حاجتي هذه لتقضي لي ، اللهم فشفعه فيّ) ، وفي رواية : (وشفعني فيه) فهذا الحديث ضعفه كثير من العلماء ، وإن جزمنا بصحته فليس فيه أن توسل بغائب أو ميت وإنما توسل بدعاء النبي ﷺ وهو حاضر حيث طلب منه الدعاء وأجابه رسول الله ﷺ إلى ذلك ، وتوسل هو بدعاء النبي ﷺ ودعا هو بنفسه ، فاجتمع الدعاء من الجهتين ، وهذا مشروع كان يفعله الصحابة مع الرسول ﷺ وفعلوه من بعده حين توسلوا بدعاء العباس رضي الله عنه في الاستسقاء ، ولو كان معلوماً لديهم جواز التوسل بالأشخاص أنفسهم لما عدلوا عن التوسل به ﷺ إلى العباس رضي الله عنه ، وإنما توسلهم كان بالدعاء كما في قولهم : (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا) ، كما هو مذكور في صحيح البخاري .
3-زيارة شركية : وهي دعاء المقبور نفسه والعياذ بالله وسؤاله ما لا يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾
د-التمادي في إطرائه ﷺ والغلو في الصالحين :
وقد صح النهي عن ذلك في قوله ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبدالله ورسوله) والحديث في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه .
وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً * قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغاً من الله ورسالاته .. ﴾ فإذا كان هذا شأنه ﷺ فكيف بمن هو دونه ؟!
8-بيان حقيقة السحر وحكم الساحر :
أ-مذهب أهل السنة وأنهم يثبتون حقيقة السحر :
السحر متحقق وقوعه ووجوده ولو لم يكن موجوداً حقيقة لم ترد النواهي عنه في الشرع ، والوعيد على فعله ، والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه ، والاستعاذة منه أمراً وخبراً ، قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾

ب-بيان أن ما ثبت من أنه ﷺ سُحِرَ لا يتنافى مع عصمته :
ونقل النووي عن المازري أيضاً أن بعض المبتدعة أنكر حديث الصحيحين في أنه ﷺ سحر بزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع .
وهذا الذي قالوه باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته ﷺ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك بخلاف ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو مما يعرض للبشر ، وإذا كان الأمر كذلك فغير بعيد أن يخيل إليه ﷺ من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطيء زوجاته وليس بواطيء ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله . لا فيما يتعلق بمرضه وابتلائه وغير ذلك من أمور الدنيا مما يبتلى به الله أنبياءه والصالحين من عباده .
قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن ، ويروى : يخيل إليه ، أي يظهر له من شدة نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور ، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا الخلل المتطرق للعقل .
أي ليس تخيله اعتقاداً منه أنه فعله حقيقة وإنما رؤية خيالية لشيء أمامه مع اعتقاده بأنه لا يفعل ما هو مخيل له –والله أعلم-
جـ- حكم الساحر :
الساحر الذي يمارس السحر المتعلم من الشياطين أو الذي تدخل فيه الشياطين كافر ، تعلم هذا السحر أو علمه ، عمل به أو لم يعمل ، وقد علم أن هذا السحر لا يعمل إلا مع من كفر بالله ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتقوله والانقياد له والعمل به عوضاً عما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أعظم الكفر وهو من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر وقد سمى الله تعالى طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله عبادة وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فكيف في طاعة الشيطان فيما ينافي الوحي فهل فوق هذا الشرك من كفر ، والآيات صريحة في كفر الساحر كقوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ فالكفر وقع بتعليم الناس السحر ، وهذا في المعلم أما المتعلم فقال في شأنه : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ يعني من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة وكفى بدخول الجنة خلاقاً .
وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر ونفي الإيمان عنه بالكلية فإنه لا يقال للمؤمن المتقي : ولو آمن واتقى .
وهذا ظاهر لا غبار عليه ، والله أعلم ، وقد صرح بذلك أئمة السلف من الصحابة والتابعين وإنما اختلفوا في القدر الذي يصير به كافراً ، والصحيح أن السحر المتعلم من الشياطين كله كفر قليله وكثيره كما هو ظاهر القرآن
السحر الذي هو لعب وخفة وحركة ولا يؤذي به الناس ولا ينهب أموالهم ليس حكمه كذلك مع اقترانه بإيذاء الناس أو هز عقائدهم ، والأخير ليس كالسحر الذي فيه استخدام الشياطين وما يقتضي الكفر ، وإن كان كل ذلك مذموماً ، والحكم المقصود هنا هو حكم ما فيه استخدام للشياطين ، هذا وقد نسب لبعض العلماء من أصحاب أبي حنيفة أن تعلم السحر إذا كان بنية اجتنابه والحذر منه وتحذير الناس ليس بكفر والصحيح الاكتفاء بمعرفة بطلانه من الشرع والاستعاذة بالله من الشياطين والسحرة والابتعاد عن طرقهم ، فإن تعلُّمَه لا يؤمن معه على المتعلم أن تستدرجه شياطين الإنس والجن حتى توقعه في الكفر فالعادة أنهم لا يعلمون أحداً السحر حتى يكفر .
د-حد الساحر :
1-إن كان سحره مما يكفر به –كما سبق- فحده القتل ضربة بالسيف كما هو ثابت بالكتاب من عموم النصوص في الكفار المرتدين ، وكما قال الترمذي : (حد الساحر ضربة السيف) وبعض أهل العلم على ذلك أي على قتل الساحر بمجرد السحر ، وقول مالك وكذا أخذ بهذا أبو حنيفة وأحمد رحمهم الله جميعاً، وصح عن عمر رضي الله عنه أنه كتب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. وصح عند مالك في الموطأ عن حفصة رضي الله عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها.
وقال الشافعي : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ الكفر فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم ير عليه قتلاً .
2-إذا كان سحره لا يبلغ الكفر لكن اعتقد جوازه كفر كذلك وقتل حد المرتد .
4-إذا كان سحره يبلغ الكفر أو لا يبلغه لكن قتل به إنساناً فإنه يقتل عند مالك وأحمد والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يقرر منه ذلك أو يُقِرّ به في حق شخص معين وهنا يقتل حداً إذا كان كفراً ويقتل قصاصاً إن لم يبلغ الكفر . وقال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل فهو مخطئ عليه الدية .
عقوبة الساحرة :
قال مالك وأحمد والشافعي في الساحرة إذا كانت من المسلمين أنها تقتل وحكمها حكم الرجل .

وعند أبي حنيفة لا تقتل ولكن تحبس .
ساحر أهل الكتاب :
عند أبي حنيفة يقتل فيما يقتل فيه الساحر من المسلمين .
وعند مالك والشافعي وأحمد أنه لا يقتل لأن رسول الله ﷺ لم يقتل لبيد ابن الأعصم اليهودي عندما سحره .
وروى البعض عن مالك في الذمي روايتين إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل ، والثانية أنه يقتل وإن أسلم .
هل تقبل توبة الساحر إذا تاب ؟
عند أبي حنيفة ومالك وأخمد في المشهور : لا تقبل .
وعند الشافعي وأحمد في رواية : لا تقبل .
لكن قال مالك : إذا ظُهِر عليه توبته لأنه كالزنديق ، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه .
هـ-تعريف النشرة وحكمها :
النشرة في حل السحر عن المسحور ، فإذا كان بسحر مثله محرم ، وإن كان بالرقي والتعاويذ والأدعية المشروعة فمشروع ندب إليه الشرع ، ومن أعظم ذلك فاتحة الكتاب وآية الكرسي والمعوذتان . أما قول الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر وما روى إنه ﷺ لما سئل عن النشرة قال : هي من عمل الشيطان، فمحمول على حل السحر بالسحر
و-ذم التنجيم وأنه من أنواع السحر :
-علم النجوم أنواع عديدة ، منها :
1-وهو أعظمها ، ما يفعله عبدة النجوم ويعتقدونه في السبعة السيارة وغيرها فقد بنوا بيوتاً لأجلها وصوروا فيها تماثيل سموها بأسماء النجوم وجعلوا لها مناسك مخصوصة لعبادتها .
2-ومنهم من يقوم بكتابة حروف أبا جاد ويجعل لكل حرف منها قدراً من العدد معلوماً ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة ... إلخ ، ويجمع ويطرح بطرق عنده وينسب ذلك إلى الأبراج الاثني عشر ثم يحكي على ذلك بالسعود والنحوس .
3-ومنها النظر في حركات الأفلاك ودوراتها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرات في كل حركة من حركاته منفرداً وأخرى عند اقترانه بغيره من هبوب الرياح وغلاء الأسعار وغير ذلك .
4-ومنها النظر إلى منازل القمر الثمانية والعشرين مع اعتقاد التأثيرات في اقتران القمر بكل منها ومفارقته وأن في ذلك سعوداً أو نحوساً وتأليفاً أو تفريقاً .
-وأما عن حكم الاشتغال به
فقد قال رسول الله ﷺ : (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد).
وقال عليه الصلاة والسلام : (أخاف على أمتي من ثلاث : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر).
وقال قتادة رحمه الله : إنما جعل الله سبحانه هذه النجوم لثلاث خصال ، جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدي بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .
9-الكهانة ، تعريفها وحكمها :
أ-الكاهن : في الأصل هو من يأتيه الرئي من الشياطين المسترقة للسمع ، تتنزل عليهم كما قال تعالى : ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ...﴾ فهذا أصل الكاهن ، ويستوي معه في الحكم كل من يدعي علم المغيبات ، كالرمال الذي يخط بالأرض أو غيرها ، والمنجم الذي ذكرناه ، والطارق بالحصى ، وغير ذلك .
ب-الفرق بين قدرة الشياطين على استراق السمع قبل البعثة وبعدها :
كانت الشياطين قبل بعثته ﷺ لا تحجب عن التسمُّع لما يدور في الملأ الأعلى ، أما بعد بعثته ﷺ فكانوا يرجمون بالشهب إذا حاولوا الاستماع ، كما ذكره الله عز وجل عنهم : ﴿وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً*وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾.
وفي صحيح البخاري قالت عائشة رضي الله عنها : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : (إنهم ليسوا بشيء) . قالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثون بالشيء حقاً ، فقال النبي ﷺ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة) .
وله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله سلسلة على صفوان فإذا فُزِّع عن قلوبهم –أي زال عنهم الفزع - ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض – وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدّد بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها – أي الكاهن – مائة كذبة ، فيقول : أوليس قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا وكذا ؟ فيُصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) .

جـ-حكم الكاهن :

الكاهن كافر فهو لي الشيطان ، فلا يوحى إليه إلا بعدما يتولاه ، قال تعالى : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾، والشيطان لا يتولى إلا الكفار ويتولونه ، ومن هداه الله من الكهان إلى الإيمان كسواد بن قارب رضي الله عنه لم يأته رئيه بعد أن دخل في الإسلام ، فدل على أنه لم يتنزل عليه في الجاهلية إلا لكفره وتوليه إياه، ثم الكاهن يتشبه برب العزة في صفاته وينازعه في ربوبيته إذ علم الغيب من صفات الربوبية التي استأثر الله بها دون سواه .

وقد وردت النصوص في كفر من سأله عن شيء فصدقه –كما سيأتي إن شاء الله تعالى– فكيف بالكاهن نفسه فيما دعاه!!

حكم من أتى كاهناً فسأله عن شيء :

مجرد إتيان الكهان وسؤالهم كبيرة عظيمة ، ومن فعل ذلك لا تقبل له صلاة أربعين يوماً، لقوله ﷺ : (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) رواه مسلم . أما إن صدقه بما يقول فهو كافر بما أنزل على محمد ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام : (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - ﷺ -)

المحاضرة الخامسة عشر

تابع الشرك وأنواعه

تابع

الشرك وأنواعه

ضد التوحيد وهو الشرك

8-بيان حقيقة السحر وحكم الساحر :

أ-مذهب أهل السنة وأنهم يثبتون حقيقة السحر :

السحر متحقق وقوعه ووجوده ولو لم يكن موجوداً حقيقة لم ترد النواهي عنه في الشرع ، والوعيد على فعله ، والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه ، والاستعاذة منه أمراً وخبراً ، قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾

ب-بيان أن ما ثبت من أنه ﷺ سُحِرَ لا يتنافى مع عصمته :

ونقل النووي عن المازري أيضاً أن بعض المبتدعة أنكر حديث الصحيحين في أنه ﷺ سحر بزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع .

وهذا الذي قالوه باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته ﷺ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك بخلاف ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو مما يعرض للبشر ، وإذا كان الأمر كذلك فغير بعيد أن يخيل إليه ﷺ من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطيء زوجاته وليس بواطيء ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله . لا فيما يتعلق بمرضه وابتلائه وغير ذلك من أمور الدنيا مما يبتلى به الله أنبياءه والصالحين من عباده .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن ، ويروى : يخيل إليه ، أي يظهر له من شدة نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور ، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا الخلل المتطرق للعقل .

أي ليس تخيله اعتقاداً منه أنه فعله حقيقة وإنما رؤية خيالية لشيء أمامه مع اعتقاده بأنه لا يفعل ما هو مخيل له –والله أعلم-.

جـ- حكم الساحر :

الساحر الذي يمارس السحر المتعلم من الشياطين أو الذي تدخل فيه الشياطين كافر ، تعلم هذا السحر أو علمه ، عمل به أو لم يعمل ، وقد علم أن هذا السحر لا يعمل إلا مع من كفر بالله ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتقوله والانقياد له والعمل به عوضاً عما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أعظم الكفر وهو من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر وقد سمى الله تعالى طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله عبادة وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فكيف في طاعة الشيطان فيما ينافي الوحي فهل فوق هذا الشرك من كفر ، والآيات صريحة في كفر الساحر كقوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ فالكفر وقع بتعليم الناس السحر ، وهذا في المعلم أما المتعلم فقال في شأنه : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ يعني من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة وكفى بدخول الجنة خلاقاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر ونفي الإيمان عنه بالكلية فإنه لا يقال للمؤمن المتقي : ولو آمن واتقى .

وهذا ظاهر لا غبار عليه ، والله أعلم ، وقد صرح بذلك أئمة السلف من الصحابة والتابعين وإنما اختلفوا في القدر الذي يصير به كافراً ، والصحيح أن السحر المتعلم من الشياطين كله كفر قليله وكثيره كما هو ظاهر القرآن

السحر الذي هو لعب وخفة وحركة ولا يؤذي به الناس ولا ينهب أموالهم ليس حكمه كذلك مع اقترانه بإيذاء الناس أو هز عقائدهم ، والأخير ليس كالسحر الذي فيه استخدام الشياطين وما يقتضي الكفر ، وإن كان كل ذلك مذموماً ، والحكم المقصود هنا هو حكم ما فيه استخدام للشياطين ، هذا وقد نسب لبعض العلماء من أصحاب أبي حنيفة أن تعلم السحر إذا كان بنية اجتنابه والحذر منه وتحذير الناس ليس بكفر والصحيح الاكتفاء بمعرفة بطلانه من الشرع والاستعاذة بالله من الشياطين والسحرة والابتعاد عن طرقهم ، فإن تعلَّمَه لا يؤمن معه على المتعلم أن تستدرجه شياطين الإنس والجن حتى توقعه في الكفر فالعادة أنهم لا يعلمون أحداً السحر حتى يكفر .

د-حد الساحر :

1-إن كان سحره مما يكفر به –كما سبق- فحده القتل ضربة بالسيف كما هو ثابت بالكتاب من عموم النصوص في الكفار المرتدين ، وكما قال الترمذي : (حد الساحر ضربة السيف) وبعض أهل العلم على ذلك أي على قتل الساحر بمجرد السحر ، وقول مالك وكذا أخذ بهذا أبو حنيفة وأحمد رحمهم الله جميعاً، وصح عن عمر رضي الله عنه أنه كتب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. وصح عند مالك في الموطأ عن حفصة رضي الله عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها.

وقال الشافعي : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ الكفر فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم ير عليه قتلاً .

2-إذا كان سحره لا يبلغ الكفر لكن اعتقد جوازه كفر كذلك وقتل حد المرتد .

4-إذا كان سحره يبلغ الكفر أو لا يبلغه لكن قتل به إنساناً فإنه يقتل عند مالك وأحمد والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يقرر منه ذلك أو يُقِّر به في حق شخص معين وهنا يقتل حداً إذا كان كفراً ويقتل قصاصاً إن لم يبلغ الكفر . وقال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل فهو مخطئ عليه الدية .

عقوبة الساحرة :

قال مالك وأحمد والشافعي في الساحرة إذا كانت من المسلمين أنها تقتل وحكمها حكم الرجل .

وعند أبي حنيفة لا تقتل ولكن تحبس .

ساحر أهل الكتاب :

عند أبي حنيفة يقتل فيما يقتل فيه الساحر من المسلمين .

وعند مالك والشافعي وأحمد أنه لا يقتل لأن رسول الله ﷺ لم يقتل لبيد ابن الأعصم اليهودي عندما سحره .

وروى البعض عن مالك في الذمي روايتين إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل ، والثانية أنه يقتل وإن أسلم .

هل تقبل توبة الساحر إذا تاب ؟

عند أبي حنيفة ومالك وأخمد في المشهور : لا تقبل .

وعند الشافعي وأحمد في رواية : لا تقبل .

لكن قال مالك : إذا ظُهِر عليه توبته لأنه كالزنديق ، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه .

هـ-تعريف النشرة وحكمها :

النشرة في حل السحر عن المسحور ، فإذا كان بسحر مثله محرم ، وإن كان بالرقي والتعاويذ والأدعية المشروعة فمشروع ندب إليه الشرع ، ومن أعظم ذلك فاتحة الكتاب وآية الكرسي والمعوذتان . أما قول الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر وما روى إنه ﷺ لما سئل عن النشرة قال : هي من عمل الشيطان () ، فمحمول على حل السحر بالسحر

و-ذم التنجيم وأنه من أنواع السحر :

-علم النجوم أنواع عديدة ، منها :

1-وهو أعظمها ، ما يفعله عبدة النجوم ويعتقدونه في السبعة السيارة وغيرها فقد بنوا بيوتاً لأجلها وصوروا فيها تماثيل سموها بأسماء النجوم وجعلوا لها مناسك مخصوصة لعبادتها .

2-ومنهم من يقوم بكتابة حروف أبا جاد ويجعل لكل حرف منها قدراً من العدد معلوماً ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة ... إلخ ، ويجمع ويطرح بطرق عنده وينسب ذلك إلى الأبراج الاثني عشر ثم يحكي على ذلك بالسعود والنحوس .

3-ومنها النظر في حركات الأفلاك ودوراتها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرات في كل حركة من حركاته منفرداً وأخرى عند اقترانه بغيره من هبوب الرياح وغلاء الأسعار وغير ذلك .

4-ومنها النظر إلى منازل القمر الثمانية والعشرين مع اعتقاد التأثيرات في اقتران القمر بكل منها ومفارقته وأن في ذلك سعوداً أو نحوساً وتأليفاً أو تفريقاً .

-وأما عن حكم الاشتغال به

فقد قال رسول الله ﷺ : (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد).

وقال عليه الصلاة والسلام : (أخاف على أمتي من ثلاث : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر).

وقال قتادة رحمه الله : إنما جعل الله سبحانه هذه النجوم لثلاث خصال ، جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدي بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

9-الكهانة ، تعريفها وحكمها :

أ-الكاهن : في الأصل هو من يأتيه الرئي من الشياطين المسترقة للسمع ، تتنزل عليهم كما قال تعالى : ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ...﴾ فهذا أصل الكاهن ، ويستوي معه في الحكم كل من يدعي علم المغيبات ، كالرمال الذي يخط بالأرض أو غيرها ، والمنجم الذي ذكرناه ، والطارق بالحصى ، وغير ذلك .

ب-الفرق بين قدرة الشياطين على استراق السمع قبل البعثة وبعدها :

كانت الشياطين قبل بعثته ﷺ لا تحجب عن التسمُّع لما يدور في الملأ الأعلى ، أما بعد بعثته ﷺ فكانوا يرجمون بالشهب إذا حاولوا الاستماع ، كما ذكره الله عز وجل عنهم : ﴿وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً*وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾.

وفي صحيح البخاري قالت عائشة رضي الله عنها : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : (إنهم ليسوا بشيء) . قالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثون بالشيء حقاً ، فقال النبي ﷺ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة) .

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله سلسلة على صفوان فإذا فُزّع عن قلوبهم –أي زال عنهم الفزع - ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض – وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدّد بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها – أي الكاهن – مائة كذبة ، فيقول : أوليس قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا وكذا ؟ فيُصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) .

جـ-حكم الكاهن :

()

الكاهن كافر فهو لي الشيطان ، فلا يوحى إليه إلا بعدما يتولاه ، قال تعالى : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ ، والشيطان لا يتولى إلا الكفار ويتولونه ، ومن هداه الله من الكهان إلى الإيمان كسواد بن قارب رضي الله عنه لم يأته رئيه بعد أن دخل في الإسلام ، فدل على أنه لم يتنزل عليه في الجاهلية إلا لكفره وتوليه إياه، ثم الكاهن يتشبه برب العزة في صفاته وينازعه في ربوبيته إذ علم الغيب من صفات الربوبية التي استأثر الله بها دون سواه .

وقد وردت النصوص في كفر من سأله عن شيء فصدقه – كما سيأتي إن شاء الله تعالى – فكيف بالكاهن نفسه فيما دعاه !!

حكم من أتى كاهناً فسأله عن شيء :

مجرد إتيان الكهان وسؤالهم كبيرة عظيمة ، ومن فعل ذلك لا تقبل له صلاة أربعين يوماً، لقوله ﷺ : (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) رواه مسلم . أما إن صدقه بما يقول فهو كافر بما أنزل على محمد ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام : (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - ﷺ -)